أحبّ إليَّ، فلك عشرة من الإبل إن حسبتهم عني. فقدم نعيم على أصحاب رسول الله ﷺ وهم مجهزون فجعل يثبطهم ويخوفهم ويذكر أن أبا سفيان قد جمع لهم الجمع الكبير، وأنهم إن خرجوا لم يفلت منهم أحد. وجعل يريهم النصح لهم والإشفاق عليهم، فما قبلوا وبادروا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وخرجوا وتخلف أبو سفيان عن الوعد وفيهم نزلت: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[1] الآية.

فتأمل خيبة المشركين وخلف أقوالهم وحيرتهم مع كثرتهم، وصدق جميع ما وعدهم رسول الله ﷺ، وجرأة المسلمين مع قلتهم وفقرهم وشدة الأمر عليهم.

وبـاب آخـر
[مثل عيسى كمثل آدم]

من أعلامه ﷺ، وهو أن نصارى نجران وغيرهم من النصارى دعاهم إلى الإسلام فقالوا: أسلمنا قبلك فكذبهم في قولهم بأنهم قالوا: لله ولد، وعظّموا الصليب، وأكلوا الخنزير. فقال شيخ منهم كبير فيهم: من أبو عيسى؟ فسكت النبي ﷺ وكان لا يعجل حتى يأمره الله، فأنزل الله عز وجل ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] فقرأ رسول الله ﷺ عليهم ذلك، ثم دعاهم إلى المباهلة وأخذ بيد الحسن والحسين وعليّ وفاطمة رضوان الله عليهم. فقال واحد منهم لمن معه من النصارى: أنصف الرجل، وتشاوروا وقال قائل منهم: إنه لصادق ولئن باهلتموه ليحرقن.

فقالوا له: لا نبارزك، وكرهوا الإسلام، وأقروا بالجزية، وسألوه أن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٣.

(٢) سورة آل عمران آية ٥٩-٦٢.

يقبلها منهم فأجابهم إلى ذلك، وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو باهلونا لأضرم الله عليهم الوادي نارًا، فرضوا بالجزية وانصرفوا بالخزي».

فانظر إلى هذا الاحتجاج في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، احتجاج غير متكلف ولا متعمل ولا مخالط للمتكلمين ولا هو في بلد الجلد صنعتهم. فأشار لك بهذه الإشارة التي هي من جوامع العلم ومفاتيح الحكمة كما قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي اختصارًا»فإن خلق آدم من أكبر الحجج على النصارى، وخلقه أبدع، لأنه خلق من غير ذكر ومن أنثى وأكمل الله قوته وأداته وعقله وتميزه ضربة واحدة، وتولى الله عز وجل مناجاته وتأديبه وتعليمه بنفسه دون كل أحد من خلقه.

وعلى كل حال فالمسيح قد تقلب في الحشا كالأطفال،وخرج من الفرج وكانت أمه تحتاج إلى آية في أنه مولود من غير ذكر، وقد خلق الله حواء من آدم، وقد خلق الملائكة من غير تناسل ولا أكلوا ولا شربوا ولا بالوا ولا تغوطوا، وليس كذلك المسيح، فإن سبيله في ذلك سبيل سائر الناس.

وقد تقدم لك ذكر أجناس الحيوان التي خلقها الله من غيرذكور ومن غير أنثى وبغير تناسل في كتابك المعروف«بالمصابح»، وخلق الدودة والذبابة في الحجة كخلق الفيل، فإن المخلوقين لا يتأتي منهم إنساء علامة ظفر ولا إحياء دودة، بل إحياء الدودة أبداع من إحياء الفيل، كما أن يظم الخردل أبدع من نظم الحنظل.

هذا وقد قدم دلالة العقل في سورة يونس فقال عز وجل: قالوا ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾[1]. في أن ولادة الولد لا يتخذه الحكيم إلا للعز والرفد وبقاء للذكور، فإذا كانت الحاجات منتفية عن الله عز وجل علمنا أن اتخاذ الولد لا يجوز منه، وقد تبين أيضًا من طريق العقل أنه لا كفء له ولا

---

(١) سورة يونس آية ٦٨.

إله معه، فقال عز وجل:﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١] فليس مع التضاد نظام ولا مع الشركة استقامة.

ولما قالوا له ﷺ: كفرت أهل الكتب من النصارى ومشركي العرب بأيتما آية يا محمد جعلت الأله واحد؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[٢] فقدم الدعوى، ثم اتبعه بأدلة العقل فقال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣] فتبين أنه لو كان هاهنا آلهة أخر لقدَّم ما أخره هذا وأخر ما قدمه، وسود ما بيضه وبيض ما سوده، وإن كان جميع ذلك حكمة، لأنه ليس بمحال أن تنبت اللحى للنساء وأن يكون ابتداء نبات اللحى أبيض كالصلع أو أخضر كالحصرم، أو أصفر كالزعفران، وأن تلد النساء كأولاد الأنعام كأولاد النساء، وأن يكون ماء البحر عذبًا فراتًا وأن يكون ماء دجلة ملحًا أجاجًا، وأن يولد المولود كامل العقل والقوى والأدوات، كاسيًا كيسًا كالفروج، عالمًا بالصنائع من غير تعلم ولا تمرين كفرخ الأوز وعلمه بالسباحة حين يخرج من بيضته، وكعلم دود القز والعنكبوت بالنسج والنحل ببناء البيوت، كل هذا ممكن، فلما جاء ذلك على طريق واحدة فلا ينتقض بما نبهت عليه، علمتَ وتيقنتَ أنه لا إله إلا هو، وأنه المعتز بالقدم فلا قديم ألا هو، وأن كل موجود ليس هو الله فكائن بعد أن لم يكن.

فإن قيل: فما ينكر أن يكون هناك آلهة جماعة إلا أنها قد وكلت التدبير إلى واحد منها فجرى تدبيره على طريقة واحدة.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٢.

(٢) سورة البقرة آية ١٦٣.

(٣) سورة البقرة آية ١٦٤.

قيل له: هذا خلاف ما يعقل وخلاف ما أخرجت العبرة في أن الجماعة لا يتفقون في المشيئة والإرادة والتقدير والتدبير أبدًا على طريقة واحدة، ولا فرق بين من ادعى هذا أو ادعى في الإنسان الواحد أنه جملة أحياء قادرين عالمين مدبرين غير أنهم قد اتفقوا في الإرادة فلا يختلفون، وهذا خروج من العقل ومما شهدت به العبرة.

وقد بين أيضًا بحجة العقل أن الإله لا يكون محتاجًا، فقال عز وجل: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1] فقال: أنتم ترون حاجته وفقره وضعفه، وحاجة أمه وحاجته إلى أمه، فكيف يكون من هذه سبيله إلهًا؟ فإن كان عندكم إلهًا بكون الآيات ظهرت على يديه، فقد خلت من قبله رسل كانت لهم آيات ومعجزات عظيمة كثيرة، ثم قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2] فقد كان المسيح لا يدفع عن نفسه الحاجات والآفات فكيف يملك لكم.

ثم قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[3] يقول: أنتم معشر النصارى قد آمنتم بنبوة موسى والأنبياء قبل عيسى، وصدقتم كتبه، وكلهم قد جاء بإخلاص التوحيد، وأنه إله واحد غني قديم لا إله إلا هو، لا يعرفون مايقوله النصارى من الجوهر والأقانيم والاتحاد وما أشبه ذلك، وأن هذا نمط من ينكر خلق السموات والأرض والبعث والنشور وما جاءت به الأنبياء عليهم السلام فكيف تكونون من أهل الكتاب وهذه سبيلكم؟ فينبغي أن يصدق قولكم فعلكم.

---

(١) سورة المائدة آية ٧٥.

(٢) سورة المائدة آية ٧٦.

(٣) سورة المائدة آية ٧٧.

فتأمل رحمك الله هذه الجملة، فإ الجوهر والأقانيم والاتحاد هو من قول أرسوطاليس وأشباهه من القائلين بالقدم وتكذيب الرسل وبإنكار البعث، وهم قالوا: إن الإنسان إذا عرف شيئًا فقد اتحد به، وأن العقل والعاقل والمعقول يصير شيئًا واحدًا، وأن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، ولهذا قالوا: هرمس المثلث، فهذه الجهالة والحماقة هي هؤلاء وعنهم أخذ نموها، وهم يسمون حكامهم ورؤساءهم آلهة لا الأنبياء وأهل الكتاب، فانظر إلى هذه من مقالة هؤلاء كيف أطْلَعَ الله عز وجل محمدًا عليه ولو لم يكن من آياته إلا هذا لكان عجبًا.

ويبلغ من جهل أرسطوا طاليس وأمثاله أنهم يقولون: إن الشمي والقمر والكواكب حية عالم سميعة بصيرة تخلق وترزق وتحيي وتميت، وهي عندهم آلهة يدعونها ويسألونها ويرغبون إليها في الرزق والعاقبة والحياة، ولكل كوكب منها عندهم هيكل ودعاء وبخور ودخنة، فقد كان الناس يعجبون من قولهم في الناس أنهم آلهة حتى صاروا يقولون ذلك في الجماد والموات، إذ لا فرق بين من ادعى ذلك في الشمس والقمر أو ادعى في البرق والغيم والريح والنار والياقوت والزجاج، أو ادعى في شعاع الشمس، أنه سيمع بصير خطيب شاعر.

على إن إخوانهم من المنانية قد ادَّعوا في الغيم والمطر والريح والماء وفي جميع الأجسام أنها حية سميعة بصيرة حساسة دراكة، وإنما ذكرنا هذا وإن لم يكن كاملاً في النبوة لتعلم أن أدلة التوحيد ونفي الشركة والشبيه مأخوذ من القرآن، مجتذب إلى ما في أدلة العقول من ذلك، ولتلعم أن الخير كله في القرآن ومن القرآن، ومنه صنفت كتب الكلام بما في العقل من ذلك، وقد تقدم لك في كتاب «المصباح» قطعة منه:.

وقد طعن أبو عيسى الوراق وابن الراوندى في قصته المباهلة أنها مشاتمة وأن القوم رفعوا أنفسهم عنها، وقال: وقولكم إنه قال لهم: إن باهلتموني نزلت بكم النقمة، ليس هذا في الكتاب وإنما هو حديث من أحاديثكم.

قيل لهم: هم كانوا يلعنونه ويشتمونه ويبالغون في ذلك وفي شتم أصحابه ولعنهم ويطلبون نفسه بغير حجة، ويرحلون إلى الملوك ويستفرغون أوسع في ذلك، فمتى رفعوا أنفسهم عن هذا. ولكن لما لم يجد هؤلاء في آياته ﷺ مطعنًا وقد بذلوا جهدهم عدلوا إلى المباهنة والمكابرة؛ وليست المباهة كما ظنوا، وذلك لجهلهم باللغة كما جهلوا صنعة الكلام. فإن المباهلة في اللغة تجري مجرى المخاطرة والمبايعة والمراهنة التي يكون صاحبها يؤول أمره فيها: إما إلى الظفر، وإما إلى الفضيحة والعطب. وهو لفظ مشتق من الباهل وهي الناقة المخلوع عنها صرارها وهو ما يصر به ضرعها، أي يشد، لئلا ترضع ولا تحلب، فإذا نزع عنها ذلك الصرار فهي باهل، أي متروكة، فمن أراد حلبها نال ذلك منها، وفي الخبر عن امرأة من العرب أنها قالت لزوجها: منحتك مأدومي، وأبثثتك مكتومي، وأتيتك باهلا غير ذات صرار.

فقد علمت ثقة رسول الله ﷺ بربه وسكونه إلى ما يوحى إليه، وإلا لم يكن ليقوم هذا المقام في أن الكاذب يعجل الله له خزية وينزل به نقمته لزن هذا القول عليهم سهل، فكان لا يأمن أن يجيبوا إلى ذلك فلا ينزل بهم عقاب فتكون الفضيحة. وكان أيضًا قد مكنهم من شتمه ولعنه في وجهه وبحضرة أصحابه وهذا مقام لا يقومه عاقل، فتعلم بدلالة عقلك أنه قد توعدهم بأنهم إن باهلوه نزلت بهم النقمة وأنهم لا ينصرفون من ذلك المقام إلا وقد بان أمرهم لأن الملاعنة لا يعجز عنها أحد، ولو لم يكن إلا الملاعنة وحدها لأجاب إليها القوم ولكان فيها كل فائدة ورغبة، فتعلم بدلالة عقلك أنهم هربوا منها للبوار الذي توعدهم به. ومما يدلك من طريق عقلك زنه قد توعدهم في المباهلة بنزول العذاب امتناعهم منها وفرارهم، ويدلُّ أيضًا أنه لو لم يكن إلا الملاعنة لما كان لإحضار النبي ﷺ من يعينه من قراباته دون سائر الناس ذلك الموضع معنىً ألا ترى أن الذين حضروا ذلك الموضع ولده وولد ولده ومن يجرى مجرى ذلك، فإن الصهر ولدٌ ويعز فقده على العاقل، لاسيما وهو ابنعمه؛ فأحضر أمسّ الأرحام وأشدهم عليه فقدًا، وقد قال لهم: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا

وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[١] فإن لم يكن إلا اللفظ بالملاعنة فما وجه هذا القول وإحضار الولد، فمن تأمل ذلك شهد عقله بأنه ﷺ قد توعدهم عند المباهلة بالاستئصال ونزول النقمة، وإن كان المتأمل لا يعرف لفظ الخبر كما يعلم إذا فكّر في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾[٢] أنه قد وعدهم بذلك قبل أن يكون، وأنه قد وفى لهم بما وعدهم وإن لم يعرف عين الخبر ولا لفظه، لأنه لا يسوغ أن يقول رئيس قوم لهم إني قد كنت وعدتكم بكذا وتمنيتم كذا وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذب في ذلك كله؛ ولهذا قالت العلماء في قول عمر على المنبر متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: إن تحريم المتعة قد قد تقدم من رسول الله ﷺ فعرفه عمر والمهاجرون والأنصار، وإلا لم يكن عمر ليقوم هذا المقام على منبر رسول الله ﷺ وبحضره أصحابه والذين بهم عز وبهم صال واستصال، وهم أوفر ما كانوا، وبهم من المحافظة على دين رسول الله ﷺ ما قد عرفه أهل العلم، هذا مقام لا يقوم عاقل ولا يختاره ممتر. وبعد فهم أولئك القوم الذين صنعوا بعثمان ما صنعوا لأنه وصل سببًا وآوى طريدًا فتعلم أن القول من رسول الله ﷺ في تحريم المتعة كان مؤكدًا كما علمت الوعيد بالعذاب ونزوله في المباهلة.

وزعم ابن الراوندي أيضًا أنه ما دعا النصارى إلى المباهلة واليهود إلى التمني[٣] على وجه الاحتجاج بذلك النبوة، ولو كان إلى هذا قصد لبدروا إلي إجابته.

فقيل له: أما سمعته يقول: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا﴾[٤] فكيف تكون المحاجة إلا كذا لولا حيرتك وانقطاعك وفضيحتك.

---

(١) سورة آل عمران آية ٦١.

(٢) سورة الأنفال آية ٧.

(٣) في المخطوط «تمني».

(٤) سورة آل عمران آية ٦١.

قيل له أيضًا: كيف لا يكون متحديًا ومحتجًا بذلك على اليهود والنصارى وغيرهم وقد كان يدَّعى من أول أمره أنه لا يكذب فيما يأتيه عن الله عز وجل وان الكذاب لا يكون نبيًا، فإذا أخبرهم بأنهم لا يتمنون الموت فلو تمنوه لكان قد دل ذلك على كذبه وعلى خروجه من النبوة على حكمه بأن من كان نبيًا لا يكذب فأي تحدى[1] واحتجاج يكون أقوى من هذا وكذا الحال في قولهم في المباهلة.

وبـــاب آخـــر

[الصد عن سبيل الله]

من أعلامه ﷺ، من ذلك قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[2].

فخبر بإنفاقهم قبل أن ينفقوا، وبقتالهم قبل أن يقاتلوا، وبهزيمتهم قبل أن يهزموا، ثم كان ذلك كما قال وكما أخبر وكما فصل، وأورد ذلك موردًا يغيظ ويغضب ويبعث على تكذيبه وعلى المانعة من وقوع ما أخبر به، بخلاف تدبير البشر، فإن الحكماء يتواصون بكتمان ما يدبرونه ويعزمون عليه ويقولون: من فساد الأمر والتدبير إعلانه قبل الفراغ منه، ثم لا يرضى أن يجعل ذلك خبرًا عن نفسه بل يجعله خبرًا عن ربه.

وباب آخر

[إخباره عن اليهود]

من آياته وعجيب أعلامه، وهو إخباره عن اليهود فقال: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾[3].

---

(١) في المخطوط: إن الذين.؛

(٢) سورة الأنفال آية ٣٦.

(٣) سورة آل عمران ١١٠ - ١١٢.

فخبر أن أقلّهم يؤمن ولو لم يكن على بينة من أمره وثقة عن خبر ربه عز وجل وما يوحيه إليه، لم يكن ليقول هذا وهو لا يأمن أن يتبعه أكثرهم ويؤمنون ويدخلون في دينه. ثم قال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ ولو لم يكن على يقين لم يقل: ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ وهو لا يأمن أن يتجاوزوا الأذى إلى أخذ المال أو إلى سبي الذرية وإلى قتل الأنفس، وأن يغلبوه إن قاتلوه ولا يولون الأدبار، فقاتلوه ﷺ يوم قينقاع فنزلوا على حكمه، وقاتلوه يوم نبي النضير فأجلاهم عن بلادهم، وقاتلوه يوم نبى قريظة فولوا الأدبار فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، وقاتلوه يوم خيبر فهزمهم وملكهم وأخذ عنوة خيبر بالسيف فرضوا به أن يقرهم على أن يكونوا حرثة يعملون له في النخل.

فتأمل هذا الشرح وهذا التفصيل في هذه الأخبار، فإن مثلها لا يقع اتفاقًا ولا من حذاق المنجمين ولا الكهنة، وانظر كيف أخبرهم بها قبل وقوعها، وأنذرهم بما يكون قبل أن يكون، وجعلهم على أهبة، بخلاف تدبير البشر. وقد كانوا جماعات كثيرة لهم خيول وسلاح وحصون ويمتنعون ويقاتلون من ناوأهم وأرادهم وقصدهم، لتعلم أن هذا من أخبار علاّم الغيوب، وهذا من الدلائل والواضحة والأعلام البينة النيرة لأن السيف إذا لقي السيف دبّ الحياء، ولا يأمن من ليس على يقين مما يخبر به أن يقع الأمر بخلاف ما خبر ولا يحمل أحد نفسه على هذا من غير يقين إلا الغاية في الحمق والجهل والنقص.

وبـــاب آخـــر

[صدق إخباره]

من آياته ﷺ، وهو أنه لما كانت وقعة بدر، وصدقت أخباره وتحققت مواعيده، ماج أعداؤه من اليهود وغيرهم، وقال بعضهم لبعض: ما أخلف محمد في شيء أصحابه، وإنه لنبيّ، وستؤول الأمور إلى ما يقول، وسيظهر على الناس وتكون الدولة له. فلما كان يوم أحد وقتل من أصحابه من قتل اشتدت قلوبهم ورجعوا على إخوانهم الذين قالوا لهم ما قدم تقدم، وقالوا لهم:

أبشروا بما كان عليه يوم أحد، فأنزل الله عز وجل ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[١] ثم أذكرهم بالآيات كانت بدر فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾[٢] فغلبوهم وقهروا كما قال وإنى جهنم يحشرون كما أخبر، فصدق إخباره بالأول يشهد بالثاني، فتأمل هذه الأجوبة والأدلة المكشوفة الواضحة، وانظر كيف يذكر قصة بدر ويحتج عليهم بها ويجعل ذلك عن ربه لتعلم أنها قصة قد عرفها العدوّ والولي.

وبـــاب آخـــر

من آياته وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

فإن مسجد بيت المقدس قد كان غلب عليه الروم الدهور الطويلة واستولوا عليه مع ملكهم بالشام وأقاموا فيه الشرك ومنعوا من ذكر التوحيد فيه، وغلبت قريش على المسجد الحرام وغيرهم من مشركي العرب، وقد كان أبو بكر الصديق بنى مسجدًا بمكة بفناء داره قبل الهجرة فكان يتلو فيه القرآن ويدعو إلى الله وإلى رسوله، وقد كان أجاره رجل من سادات قريش على أن يفعل ذلك. فمشت قريش إلى الرجل الذي أجار أبا بكر، وهو معروف ولكن لم يحضرني اسمه في هذا الموضع، فذكروا له محل أبي بكر وحلمه وبيانه ولطفه، وأنه يمر به القيان والعبيد والنسوان فيسمعون دعاءه فلا يلبثون أن يجيبوه إلى دين محمد، فلا تجره. فقال لهم: إنه رجل يكسب المعدم ويصل الرحم ويقري الضعيف، فكرهت أن يخرج من بينكم ويهرب بدينه عنكم

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٣.

(٣) سورة البقرة آية ١١٤.

فتعدمون هذا الفضل. قالوا: فيلزم بيته ولا يعلن دينه؛ فمنعوه من ذكر الله في مسجده. فبشر الله نبيه ﷺ وأصحابه بالظهور على هذه المساجد، وملكهم لها ولمن فيها، وأنهم لا يدخلونها إلا أذلاء خائفين متهورين، أو بأمان وعهد وإذن من رسول الله ﷺ أو من أصحابه. ثم أخبر بخزيهم في الدنيا وعقوبتهم من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فنزل بهم ذلك الخزي بقتل من قاتل منهم وعليهم، والذل بأداء الجزية لمن رغب في الإقامة فيما غلب عليه الصحابة، فكان كل ذلك كما أخبر، وفي هذا غيوب كثيرة.

وقد كانت ممالك الروم وغيرهم قوية ممتنعة فوفى الله لنبيه بتصديق هذه المواعيد، وبفتح هذه الأمصار، وبنزول الخزي على مشركي العرب في الدنيا وسينالهم في الدار الآخرة عذاب عظيم كما قال: وكما صدق في الأول صدق في الثاني، فنعوذ بالله من عذابه وسخطه.

وبـاب آخـر

من هذا الجنس، أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة جاء ليدخل الكعبة فدفعه عثمان بن أبي طلحة العبدري ومنعه من دخولها، فقال له النبي ﷺ: لا تفعل يا عثمان فكأنك بمفتاح الكعبة في يدي أضعه حيث شئت فقال له عثمان: لقد ذلت قريش يومئذ وقلّت، فقال النبي ﷺ: بل كثرت وعزت.

واعتبر رحمك الله سيرته في المكاتبة والمراسلة فإنه فعل ذلك بجبابرة الأرض وملوك الدنيا من العرب والعجم في أقطار الدنيا، فدعاهم إلى رفض ما هم عليه، والدخول في طاعته، وامتثال أمره، والخضوع له، وأخبرهم بذات نفسه وبما يدعوا إليه، وأخبرهم بأن الله عز وجل اصطفاه وحده واختاره وحده ووعده بالظهور والغلبة الملوك الأرض وجبابرتها، وأن السعيد من بادر إلى طاعته من قبل أن تسبى أمواله وتستباح حريمه ويسفك دمه، فما ترك شيئًا مما يغضبهم ويغيظهم ويبعثهم على قتله واستئصاله ويواره وبواره أصحابه إلا أتى به وفعله، وهذا ما لم يكن مثله ولا يقدم عليه عاقل إلا وهو

على غاية الثقة بالسلامة من العواقب، وأن العاقبة تكون له لا لعدوّه.

أما ترى كيف اغتص كسرى كتابه حين أنفذه مع عبد الله بن حذافة السهمي وهو: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم لمجوس عليك.

فمضى بكتابه، وكان في طريقه وبحضرته ما لعله يرد عليك، فلما بلغه كتابه غاظه ذلك وأغضبه، حتى كتب إلى صاحبه باذان وهو خليفته باليمن وملكها يأمره بإشخاصه إليه، فأرسل باذام في ذلك، فسّر ذلك أعداء رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى وقريش والعرب واستبشروا، وقال بعضهم لبعض: كفيتموه كُفيتموه. فلما وصل الرسول إليه قال له رجل منهم انطلق معي إلى الملك باذان فنكتب معك كتابًا إلى الملك شاهنشاه ينفعك عنده ويكفّ عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك، فقال رسول الله ﷺ: أقم إلى غدٍ حتى أجيبك. فلما كان الغد صار، فقال ما تقول يا محمد؟ قال ارجع إلى صاحبك فإن ربّي قد خبرني أنه قتل البارحة كسرى، قتله ابنه شيرويه على كذا كذا ساعة من الليل، فقال له هل تدري ما تقول، إنا قد نقمنا منك أيسر م هذا، فتكتب بهذا عنك ونخبر الملك باذام بذلك قال: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، إلى أن قال: سيأتي هذا الدين على ما أتى عليه الليل.

وقد كان قال ﷺ لعبد الله بن حذافة لما رجع إليه وأخبره بأن كسرى

استخف به ومزق كتابه فقال ﷺ: أما إن الله عز وجل سيمزق ملكه.

فانظر إلى هذه الأقوال المغضبة كيف تتوالى لهم منه، وانظر إلى هذه الثقة هذا الثبات.

وقد كان راسل قيصر ملك الروم بدحية بن خليفة الكلبي، فأكرمه وأكر كتاب رسول الله ﷺ، وسأل من عنده من أهل مكة وتجار قريش عنه ﷺ وعن أخلاقه وطرائقه وسيرته، واستقصى ذلك، فإذا هوا لنبيّ الذي تقدمت البشارة به، وردَّه مكرمًا، فقال النبي ﷺ: لقد عرف الحق ولكن ضن الخبيث بملكه وعاجل دنياه فأثرهات على دينه.

وأرسل إلى المقوقس ملك الإسكندرية حاطب بن أبي بلتعة بكتابه إليه فدفعه إليه فقرأه، ثم أقبل على جلسائه فضحك وقال لهم: كتب إليَّ يصف لي حسن دينه ويدعو إليه، فما منعه إن كان رسول الله أن يسأل الله فيسلط البحر عليَّ فيغرقني فيُكفَي مؤونّي ويأخذ ملكي، فقال له حاطب فما منع عيسى ابن مريم وهو كما زعمت إذا أخذته اليهود فربطوه في حبل وحلقوا وسط رأسه وجعلوا عليه إكليل شوك وجعلوا على عنقه الحشبة التي صلبوه عليها ثم خرجوا به وهو يبكي حتى صلبوه على الخشبة ثم طعنوه بالحربة حتى مات، فما منعه أن يسأل به أن ينجيه منهم ويهلكهم ويكفى مؤونتهم ويظهره وأصحابه عليهم، وما منع يحيى بن زكريا حين سألت امرأة زانية رجلا أن يقتله فقتله وبعث إليها برأسه حتى وضعوه بين يديها فما منعه أن يسأل ربه أن ينجيه منها ويهلك الملك.

فأقبل المقوقس على جلسائه فقال: والله إنه لحكيم، وما يخرج الحكيم إلا من عند الحكماء، ما تقولون، قالوا: نقول: صدق أيها الملك، قد رأينا ما رأيت. وعاود قراءة كتاب النبى ﷺ، واحتبس حاطب عنده مدة، وسأله عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وعن سيرته، وردَّه مكرمًا.

وأرسل النبى ﷺ إلى غير واحد من ملوك الشام يدعوهم إلى طاعته.

وكان فيمن أرسل الحارث بن عمير الأزدي فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فأنفذ رسول الله ﷺ بعده غير واحد ولامهم على غدرهم وقتلهم الرسل، وقال لهم: أنتم مغلوبون وسلطاني يعلو عليكم، فأغضب ذلك ملوك الروم ونصارى العرب. وأرسلت نصارى العرب إلى ملك الروم: انتهز الفرصة مادام هذا الرجل في ضعف، فأنفذ جيشًا في مائة ألف قاصدًا لرسول الله ﷺ بياتوقس البطريق، وعلى نصارى العرب من غسان وقضاعة وغيرهم شرحبيل بن عمرو الغساني، فانتهوا إلى مؤتة فكفاه الله أمرهم كما هو معلوم.

وأرسل إلى ملوك اليمن وملوك البحرين وعمّان رسلا معروفين، وقد علمت رحمك الله أنه دعاهم إلى الاختلاع من ملكهم والخروج من عزهم إلى التواضع والتذلل، وإلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، وهذا غير تدبير البشر وحكماء الملوك، وهذا عندهم من سوء التدبير، فتلعم بعقلك أنه لم يفعل ذلك إلا وهو على يقين من السلامة من سطواتهم وكيدهم وشرهم. وقد تقدم لك حال كل من جاء بعده من قريش والعرب وغيرهم، وأنهم به لاذوا واعتصموا وعلى ما مهّده ﷺ، وأنه هو ما اعتصم بمخلوق بما فيه كفاية، فارجع إليه. وقد أجابه ﷺ من الملوك الذين دعاهم النجاشي وغيره.

وتأمل حال قوم في زمانك وهم من الملوك العظماء، وملكهم واسع، وشأنهم عظيم، فإنهم م تسترهم بالإسلام ومع اعتزائهم إلى النبى ﷺ وأنهم من ولده وقد قدموا على ما مهد لهم، بأي شيء يلقون ملوك الإسلام، وبأي شيء يراسلونهم، وكيف يخضعون لهم ويخدعونهم بألوان الخدع ليستبقوا طاعتهم لهم باللسان، فيقول دعاتهم لكل واحد من هؤلاء حتى لرؤساء الأعراب والأكراد: أخوك فلان ابن فلان ابن رسول الله، وقد علمت عظيم ملكه، وهو يدعى بأمير المؤمنين، وقد فرض رسول الله ﷺ عليك طاعته لقوله كذا ولوصيته الفلانية؛ وما يطالبك بحقوقه، وما يطلب منك شيئًا، ونكنه يرغب في أخوتك وفي صداقتك وفي الانبساط إليك في أن تقبل هديته، وقد علمت أن رسول الله ﷺ قبل الهدية ورغب في ذلك، وإن كافأت بأقل القليل

قبله منك وشكرك عليه. ثم يهاديه بالهدية النفيسة الخطيرة ويقول له: «إذا استحكم الأنس وتمت الثقة فتح لك أبوابًا يتضاعف بها ملكك، وتشتد بها شوكتك، وما عليك في الوصول إلى ذلك مشقة ولا كلفة ولا مؤونة ولا غرامة، وما هو إلا الثقة بك وأن يعرف طويتك وأنك بحيث يوثق بك.

فإذا تعلق قلبه بذلك وطمع، قال له: قد علمت ما جاء في الكتمان والمواثيق المأخوذة من الأنبياء ثم يروضه بعد هذا، فإن كان من أهل الشهوات والرغبة في الدنيا قال له: أنت فيمن قال الله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1] ويبيحه المحظورات ويتقرب إليه بما يسقط عن الكلف ويؤمنه من كل عقاب آجلا وعاجلا، ويذكر له ما قد أعدَّه من التأويلات، ويتحبب إليه بهذا وأشباهه، ويأخذ عليه كتمان السر وأن لا يخبر غيره بما عنده ولا يسأله عن شيء وإن كان مجوسيًا.

وإن رأه من المتمسكين بالشريعة زيّن ذلك عنده وقال له: لا تغترّ بما يقوله الإمامية القطعية أن الصلاة عند أهل البيت إحدى وخمسين ركعة فإن هؤلاء ليسوا من دين أهل البيت على شيء، وصلاة أهل البيت ثلاث وسبعون ركعة، ويأمره بذلك، ويصلي عنده وبحضرته وبحضرة أتباعه وحشمه، وإن يأت عنده لم ينم الليل من كثرة الصلاة. ويأمره بالزكاة وبكل خير يحسب ما يتفق ذلك عنده، غير أنه يقول: للصلاة باطن، ولكل شيء باطن.

وإن كان يهوديًا زيّن عنده اليهودية وما فيها من إقامة السبت وجميع ما هم عليه، وقال: المهديّ الذي ندعو إليه هو المسيح الذي تنتظرونه:

وإن كان نصرانيًا مدح الصليب وقال: المهدي الذي ندعو إليه هو الفارقليط الذي بشر به المسيح.

وإن كان مجوسيًا مدح عند المجوسيّة وقال: أنتم الناس، وأنتم العقلاء، وأهل الملك القديم.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧.

وإن كان صابئًا مدح عنده عبادة الكواكب، ويقول لكل واحد من هؤلاء الأصناف: إن الديانات كلها سواء وهي تتفق في الباطن ولكن أصحابها لا يعلمون.

ويظهرون التودد إلى كل أحد بما يهواه، ثم يتواصون بكتمان ذلك وأن لا يظهروا[1] ذلك إلا لمن أحبهم أو مال اليهم.

ويقصدون بالدعوة الأعراب والأكراد والديلم والبربر والنبط والمترفين من الأمراء والوزراء والكتاب وأهل الجهالة. ويستظهرون على من انتمى إلى القول بالإمامة والتشيع، وهؤلاء يسرعون إلى إجابتهم والقبول منهم، ويوثقون الجميع بالأيمان الغليظة والعهود المؤكدة؛ وملوك الأرض منذ نحو مائة سنة من الديلم وبني حمدان ومن بالبحرين وعمران في البُطيحة ومن باليمن والشام وأذربيجان، وكل هؤلاء الملوك أصحاب إمامة وُمشيّعة، وفي الأرض كلها، ودولة بنى العباس لم يبق منها إلا اسمها في بعض المواضع، والموضع الذي فيه سلطانهم وملكهم وعزهم يشتم فيه العباس وولده والمهاجرون والأنصار ويلعنون، ثم هؤلاء القوم مع الملك ومع تسترهم برسول الله ﷺ واعتصامهم، ومع هذه الأحوال كلها التي تستروا بها وتوثقوا بها، أنت ترى فضائحهم في الأطراف وفي أقطار الأرض في كل حين كما قد تقدم لك طرف منه. ثم هو شيئ يحدث في كل حين، وتبدو فيه الفضيحة كل مع الملك والقهر والغلبة والسيف والقتل الذريع الذي قد تقدم لك صرف من ذكره، لتعلم أن السبل التي سلكها رسول الله ﷺ لا يسلكها عاقل، ولا تخطر بقلبه، ولا تسموا اليها همته، ولا يحدث بها نفسه، ولا يدخل فيها طمعه، إلا أن يكون رسول الله ونبيًا لله وواثقًا بوحي الله. ثم هو شيء ما كان في أحد من الأنبياء قط منذ كانت الدنيا، على ما حصله العلماء وأحصوه وبلغهم خبره، أن يكون إنسان ضعيف فقير أجير وحيد معيل مبتدئ مع هذا الحال، فيذكر ملوك

---

(١) في المخطوط: «يظهرون».

العرب وملوك الفرس وملوك الروم حتى يذكر خراسان وملوك الشرك والترك أنه يحويها ويحوزها وهو على تلك الحال، ثم يكاتبهم ملكًا ملكًا وسيدًا سيدًا وقبيلا قبيلا وبلدًا بلدًا يذكرها. ويوصيهم بالقبط وما لهم من الحرمة بمارية القبطية فإنهم يفتحون مصر، ويقول: أبشروا بفتح العروسين غزة وعسقلان، ويذكر دمشق وبيت المقدس، ويسمع ذلك نصارى العرب ويذكرونه لملوك الروم وغيرهم فيغتاظون من ذلك، وتذكر قريش ذلك الفرس.

ولما دخلت رسل المسلمين إلى الشام ولقوا ملوك النصارى بها رأوا بعضهم قد جلس على فرش عالية يرقى إليها بسلم وعليه السواد وفي رسل المسلمين عبادة بن الصامت الأنصاري، قال: ما هذا السواد عليك وما هذه المسوح التي قد لبستها، قال الملك لبستها نذرًا لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام وأفعل وأفعل، فقالوا له المسلمون: سنمنعك مجلسك هذا ووالله لنأخذنه منك، ولنأخذ ملك الملك الأعظم. ثم ساروا من عنده إلى الملك الأعظم من ملوك الروم وأبلغواه الرسالة، فأنزلهم أكرم منزل واحتبسهم عنده مدة طويلة، وخلابهم، وناظرهم وامتحنهم، وسألهم عن شيء فشيء من أمر رسول الله ﷺ ومن أمر الإسلام والمسلمين ليلاً ونهارًا، وكان لهم معه ما هو مذكور، إلى أن قالوا له: إن أرضك هذه نأخذها منك ونغلبك عليها، أخبرنا بذلك نبينا، فساءه هذا القول وقال: مهما قال من شيء فقد صدق، والله لوددت أن يفسي تطيب بالخروج من ملكي وأكون عنده فأخدمه وأشد ملكه، ولكن نفسي لا تطيب.

وقال المقوقس ملك مصر لحاطب: إنكم ستملكون ملكي هذا كما قال صاحبكم، وملوك الروم كانت أعرف بحق رسول الله ﷺ، فلذلك كانت ألين وإن كانت نصارى العرب تغاضبها وتثيرها عليه ﷺ ولم تكن/كالجبار الشقي كسرى وما فعله برسول رسول الله ﷺ وتمزيق كتبهم فمزق الله ملكه كل ممزق كما قال ﷺ، أخبر أن ابنه قتله في تلك الليلة وبينه وبين كسرى نحو ثلاثمائة فرسخ، وذلك من آياته المعروفة التي جاءت مجيء القرآن، يعرف ذلك

أهل العلم كما يعرفون أن رسوله كان اليه عبد الله بن حذافة السهمي، وكما يعرف ما كان بينه وبين النجاشي، وبين صاحب عمان، وغيرهم من الملوك. وإسلام باذان ملك صنعاء واليمن لأجل هذه الآية معروف، وإخلاصه ومن معه في الإسلام وهم يعرفون بالأنبياء.

ولما تنبأ العنسي الكذاب باليمن ناقشوه[١] وباحثوافلم يجدوا عنده آية ولا علامة، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ في أمره، فأمرهم بجهاده ففعلوا، وقتله فيروز الديلمي الذي كان أحد رسل الملك باذان إلى رسول الله ﷺ، ولم يكن ديلمي الأصل وإنما كان أحد عمال الفرس على ثغور الدليم.

ولما ارتدت العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ كان لهؤلاء الأنبياء من باذان ومن معه من البصيرة في الإسلام والإقامة عليه ومجاهدة المرتدين ومعونة أبي بكر الصديق وعماله ما هو معلوم.

وإنما أجرينا هذا من أعلامه ﷺ عند ذكر مكاتبته ومراسلته الملوك، والنية ذكر أعلامه التي ليست في القرآن بعد الفراغ مما في القرآن، فإن وهب الله ذلك وإلا ففيما فوز عظيم فاحتفظ به وحافظ عليه واطلب ما بعده فإنه أكبر الجهاد وأجل العبادة.

وباب آخر

من آياته ﷺ، وهو ما أخبر أصحابه من أنه يمكّن لهم في الأرض ويستخلفهم كما استخلف الذين من قبلهم، ويؤمن خوفهم، فيخلصون في عبادته وحده لا شريكون/به شيئًا، فقال عز وجل:﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[٢] إلى آخر الآية. وهذه نزلت في غدر من حول المدينة بهم وهم في حومة الموت وشدة الخوف، وما كان بأيديهم إلا المدينة مع من بها من اليهود والمنافقين، فأظهر الله أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) في الاصل قانشوه

(٢) سورة النور آية ٥٥

واستحلفهم ومكَّن لهم وبدَّلهم من بعد خوفهم أمنًا، وعبدوه وحده وأطاعوه، وفي هذا غيوب بل الغالب في العقل والظاهر في الحزم والتدبير أن يكونوا هم المغلبون المقهورون، إلا أن يكونوا من قبل الله، وأن يكون صاحبهم رسولاً لله، والذي يدلك على أن هذا نزل وهم غير متمكنين وأنهم قد كانوا خائفين من قوله عز وجل: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[1] فلا يجوز أن يخبرهم بما لم يكونوا عليه ويمتن عليهم بذلك والعدو والولي يسمعه وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذبهم ثم يؤكد هذا بأن يقول: هذا قول الله لكم، ووعد الله لا وعدي، وبشارة الله لا بشارتي، وفي هذا دلالة على صحة الخلفاء من بعده، ألا تسمعه يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾[2] ولو قال: الذين آمنوا لكانت عدة تحتمل التسويف والتأويل، فلما قال: ﴿مِنكُمْ﴾ جعلنا فيهم ولهم ومنهم، فزالت الشوك وارتفع اللبس، ولو كان الأمر على ما يقول الإمامية لكانت هذه الأخبار قد كذبت وهذه المواعيد قد أخلف لأنهم زعموا أن المستخلف كان علي بن أبي طالب، وأنه ما كان متمكنًا ولا آمنًا بل كان مقهورًا مغلوبًا خائفًا، فأين تصديق ما وعد الله، فنعوذ بالله من الذهاب عن الحق.

وعندنا أنه ﷺ كان في زمن أبي بكر والخلفاء قبله ممكنًا غالبًا قاهرًا آمنًا عزيزًا نافذ الأمر الأمر مسموع القول كما قد تقدم شرح ذلك لك، وبه وبإخوانه من المهاجرين والأنصار كانت خلافة من قبله وعز سلطانهم، فالعدة فيه وفي أبي عبيدة بن الجراح وفي سعد ومعاذ وعبد الرحمن وغيرهم من المهاجرين والأنصار، والله عز وجل لا يستخلف إلا المتقين ولا يمكن إلا لأوليائه وأحبابه وأهل طاعته، وليس لمن أسلم في عام الفتح، وفي هذا خبط، لأن هذه نزلت في عام الخندق وفي غزوة الأحزاب قبل فتح مكة، وأولئك من الطلقاء لا من المهاجرين والأنصار، وليس هذا بنص جلي مكشوف في خلافة هؤلاء

---

(١) سورة النور آية ٥٥

(٢) سورة النور آية ٥٥

رضي الله عنهم، ولكنه شيء يعرف بالاستنباط والاستدلال والتدبر في هذه التلاوة، فلا يسوغ في تأويلها وتفسيرها إلا هذا.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ حين ارتدت العرب بعد وفاته وكثر من خلافهم يستبشرون بظهور الأسلام وغلبة المسلمين بهذه الآية وقد تلاها أبو بكر الصديق عليهم في ذلك الزمان وقال لهم ما لعله قد تقدم لك شيء من ذكره، وهذا قد تقدم به الإجتماع وسبق به الاتفاق قبل أن يخلق هشام بن الحكم الذي هو الأصل في الطعن على خلفاء رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار. ومع هذا فقد ذكر هشام بن الحكم أنه أدرك الشيعة وكلهم يتوالى أبا بكر وعمر وعثمان، ويقولون هؤلاء ما أنكروا فضل الوصي علي بن أبي طالب ولا دفعوه عن حقه، وأن الذين دفعوه عن حقه وأنكروا فضله هم المنافقون الذين كان القرآن يهتف بهم. قال هشام وهذا كله تلزيق وتلفيق/دعاهم اليه هيبة أولئك القوم فما أقدموا على تهمتهم ولو عرفوهم لا تهموهم، ثم أخذ يذكر ما عنده من تهمتهم، فقد أقر بلسانه أنه لم يسبقه أحد إلى شتمهم ولعنهم، ولو لم يقر لكان العقل يشهد به ويدل عليه.

وباب أخر

ومن أعلامه وآياته، وأنه كان يقول في أوان ضعفه وعنفوان أمره أنه سيعظم أمره ويعلو شأنه، وتتحزب الأمم عليه، وتقصد لقتاله وقتله واستئصاله واستئصال أتباعه، ويأتونهم من كل وجه. وأن أصحابه يثبتون ويزدادون بصيرة ويقينًا في أمرهم عند ذلك. وأن من رآهم ورأى من سار إليهم يكون عنده وفي عقله ورأيه أنهم لا ينجون، فكان ذلك كما قال وأخبرهم الله في تلك الحال، أنه عز وجل سيكفيهم أمر هؤلاء وأمر ظاهرهم من أهل الكتاب، ويستخلفهم في الأرض، ويؤمن خوفهم، ويبدلهم بالضعف قوة، ويمكن لهم في الأرض وكان هذا في قصة الأحزاب، وأنزل الله فيها وفي يومها الآية التي تقدم ذكرها في سورة النور. وقد كان ﷺ أجلى بني النضير من اليهود لأذيتهم له وغدرهم به، فرحلوا عن المدينة من جواره، وصاروا إلى قريش وإلى

عبس وذبيان وفزارة وغيرهم من القبائل، وحرضوهم عليه بأنه أكفر أسلافكم وعاب أديانكم واستجهلكم وذهب بسيادتكم ورئاستكم وبأحسابكم وفرق آلافكم وحمل الأبناء على قتل الآباء، والآباء على قتل الأبناء، وهو يزعم أنه يظهر عليكم ويستأصلكم وأنتم غير آمنين مما يوعدكم به، فبادروا ما دام في ضعف قبل أن يقوى بأشد مما كنتم عليه ببدر وأحد.

وكانت لليهود بالحجاز رئاسات وضيافات ومنن على العرب، يجيرون من استجاز بهم ويمنعون عن جيرانهم ويقاتلون دونهم؛ فأثاروا قريشًا والعرب على رسول الله ﷺ، فساروا اليه في نحو عشرين ألفًا، وجاء حيي بن أخطب اليهودي النضري إلى بني قريظة من اليهود وكانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ أن يسالموه ولا يعينوا أحدًا عليه أبدًا وكتبوا بينهم وبينه في ذلك كتابًا. فجاء حيي بن أخطب اليهودي ألى كعب بن أسد رئيس بني قريظة، وقال له: جئتك بشرف الدنيا وبالعز، وهذه القبائل من قريش والعرب قد ساروا إلى محمد فكن معنا، فقال: دعني فإن هذا الرجل عرفناه بالصدق والوفاء، إن قال نعم فهي معنا، وإن قال لا فهي لا، ما لقو له خلف، وأكره أن يغدر به ولعلكم ألا تظفروا به. فقال حيي: ليس هذا من تلك العساكر التي لقيته قبل هذا، ونحن في كثرة وهو في قلة، ولن ننصرف عنه أو نستأصله، فتندم في قعودك عنا؛ وإنما هو وأصحابه قليلون، وهذه قريش في هذا العدد. وذكر عدد تلك القبائل وما زال بهم حتى غدرت قريظة. فأرسل رسول الله ﷺ بسعد ابن معاذ وسعد بن عبادة اليهم ليعرف ما عندهم وهل غدروا أم لا. فلما بصرت قريظة بالسعدين مزقوا الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وسبوه، فرد عليهم سعد بن عبادة، فقال له سعد بن معاذ: كف، فما بيننا وبينهم أجل من السباب.

فرجعا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه بغدرهم تعريضًا إشفاقًا على ضعف المسلمين، وكانت قريظة بالقرب من المدينة وفي أحد جوانبها. وجاءت قريش والقبائل من وجه آخر، وأشار سليمان الفارسي رحمة الله عليه بحفر خندق، وكان هذا أول مشهد شهده سلمان. فأمر رسول الله بحفر الخندق وأخذ كل جماعة من الصحابة قطعة يحفرونها/، فاعترضتهم صخرة صلبة لا يعمل

فيها المعمول فهموا بالتعريج عنها، ثم قال قائل: عرفوا رسول الله ﷺ وقد كان ﷺ سار بالمسلمين عن المدينة وعسكر بإزاء العدو. فنزل ﷺ إلى الصخرة وأخذ المعمول فضربها ضربة فثار منها برقة عظيمة، فكبر وكبر المسلمون، وقال: رفعت لي صنعاء واليمن فرأيت قصورها كأنها أنياب الكلاب وأنتم تفتحونها وتملكونها. ثم ضرب أخرى فبرقت برقة عظيمة فكبر وكبر المسلمون فقال: رفعت لي قصور الشام كأنها أنياب الكلاب وأنتم تفتحونها وتملكونها. ثم ضرب أخرى فبرقت برقة ثالثة فكبر وكبر المسلمون وقال: رفعت لي قصور مدائن فارس وفارس وأنتم تفتحونها وتملكونها فأبشروا وبصدعت الصخرة فصعد رسول الله ﷺ من الخندق وهو مستبشر مسرور، ورتب أصحابه لحراسة الخندق وجعله بينهم نوائب كما هو مذكور. وكان بالخندق من الضيق ما تطفره خيول شجعانهم، فطفره عمرو بن الخطاب، وأقاموا أيامًا يحاربون، ثم تواعدوا عشية أن يكونوا من غد يحملون حملة واحدة من كل جانب، ويقتحمون على المسلمين. فأرسل الله عليهم ريحًا عاصفًا قلعت أخبيتهم وأبنيتهم، ونفرت خيولهم وإبلهم، وأخذهم من الرعب مالم يملكوا أنفسهم، ومروا هرابًا على وجوههم، وكفى الله المؤمنين قتالهم، وبات المسلمون من تلك الريح في كل عافية.

فإن قيل: ومن أين لكم صحة هذا أنه جرى، قيل له: قد جاء مجيئًا إذا تدبره من سمعه وفكر فيه علم وبيقن أن الأمر كذلك، فأن كان القرآن نزل به مذكرًا هذه النعمة ومحتجًا بهذه الآية وممتنًا على المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾(١).

(١) سورة الأحزاب آية ٩-١١ .

فلو كانت هذه الريح وغيرها من الأمور التي جرت العادة مثلها[١] لما امتن الله به ولا احتج والعدو والولي يسمعه، [هذا] لا يفعله عاقل فكيف يمن يدعي النبوة. ثم يؤكد بأن يجعله قولا لله وأن الله يذكرهم بهذه النعمة.

ثم قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[٢] لما كان قد تقدم به البشرى، فكانوا يقولون: الواحد منا ما يستطيع أن يذهب لحاجته من العساكر التي قد أحاطت بنا وهو يعدنا بملك اليمن وملك كسرى وقيصر. ثم أذكرهم بقول طائفة أخرى ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾[٣] وقد كان قوم من بني حارثة قالوا ذلك أخبرهم الله بضمائرهم في قولهم، ولا يجوز أن يقول ذلك إلا هو كما قال، ثم قال:﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾[٤] إلى قوله:﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[٥] يصف جبنهم وخورهم وخداعهم وأنهم إذا عادوا عاودناهم، ثم قال:﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾[٦] يحكي عن هؤلاء المنافقين وعن من قلت بصيرته وعن من في قلبه مرض، أنهم يحسبون أن الإحزاب لم يذهبوا ولم ينصرفوا، وأنهم سيرمون شعثهم مما نالهم من الريح ويرجعون، أن عسكرًا مثل هذا في الكثرة

---

(١) هكذا في المخطوط.
(٢) سورة الأحزاب آية ١٢ .
(٣) سورة الأحزاب آية ١٣ .
(٤) سورة الأحزاب آية ١٤-١٥ .
(٥) سورة الأحزاب آية ١٩ .
(٦) سورة الأحزاب آية ٢٠ .

والقوة لا ينصرفون بإزائهم في ضعف وهم مع ذلك في قلة، و﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١) فأخبر عن أسرارهم وعن ضمائرهم وواجههم بنفاقهم وسوء بياتهم، وهذا لا يفعله إلا نبي واثق بتأييد الله له وبنصره إياه، لأن من صواب الرأي ومحكم لتدبير عند الحكماء والرؤساء وطلاب الملك وخطاب الدنيا وأن يقبلوا الطاعة ممن أظهروا لهم وإن اتهموا ضمائرهم، وأن لا يرروا ما ظهر من نصحهم ولا يقولوا لهم ليس ظاهركم كباطنكم وأنتم أعداء، ليس هذا من حقوق الرئاسة ولا يسوغ في تدبير السيادة ولا يقع هذا من عاقل إلا أن يكون نبيًا، لأن الرئيس إذا فعل هذا حملهم على مكروهه وبعثهم على مكاشفته واستفراغ الوسع في الإفساد عليه وفي قتله. وفي أمثال الحكماء: لا تسمه عاقًا فيعق، وقال في وصاياه التي ترتضيها العقلاء:

اقبل مقابلة من يأتيك معتذراً ... إن بر عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعطيك مستترا

وكان أيضًا لو يكن نبيًا لا يأمن أن يكون باطنهم في طاعته مثل ظاهرهم، فإذا قال لهم قد نافقتم وهم بخلاف ذلك لكان طعن في قوله، وإن لم يواجهوه بالكذب قالوه تمن ورائه وذكروه لأتباعه ولمن قد اعتقد صدقه، ويذكرونه لعدوه من اليهود والنصارى. فإنهم كانوا أشد الناس حرصًا أن يقع له كذبة أو زلة، فهم كانوا يواجهونه بالتكذيب وليس معهم حجة فكيف إذا صارلهم حجة. فتعلم أنه لم يقل ذلك إلا عن علم ويقين، وهذا باب كبير من الأخبار بالغيوب وهو كثير في القرآن فاعرفه، فهو من الآيات العظام ثم قال لهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(٢) فقد كانوا رأوه ﷺ في تلك الشدائد والأهوال، ساكن

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٢ .

القلب، طيب النفس يبشرهم بالنصر على هؤلاء وعلى أمم العرب والعجم.

ثم قال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾(١).

وقد كانوا يقولون عند قول النبي ﷺ وهو بمكة: أني سأصير في جماعات وعساكر فيقولون: ملكنا أبسط وحزبنا أغلب وجندنا أكثر، فأنزل الله إذا ذاك وقبل الهجرة: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾(٢) فلما رآهم المؤمنين ذكروا هذا الوعد من الله عز وجل فازدادوا إيمانًا. ولهذا الوعد نظائر وأمثال كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا من قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾(٣) ومثل قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ من قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾(٤) وغير ذلك. قوله: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٥) لم يرد به الذكر باللسان وإنما أراد الذكر ذكر القلب والفكر في آيات الله ودلائله وحججه، وهذا أعظم الذكرين وأجلها وأنفعها، والذكر باللسان بعده، ولا يغني عن ذكر القلب شيء البتة. ثم قال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(٦) فأخبر عن ضمائر المؤمنين السابقين والمهاجرين والأنصار، وأن باطنهم في الإسلام كظاهرهم، وسريرتهم كعلانيتهم. كما أخبر عن باطن المنافقين ومن في قلبه مرض، وفي إخباره عن بواطن المؤمنين من الدلالة مثل ما في إخباره عن ضمائر المنافقين، فتأمل ذلك لتعرفه فشرحه يطول.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٢.
(٢) سورة ص آية ١٠-١١ .
(٣) سورة البقرة آية ٢١٤ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٨٦ .
(٥) سورة الشعراء آية ٢٢٧ .
(٦) سورة الأحزاب آية ٢٣ .

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي من قتل في سبيل الله أو مات وهو مقيم على موالاة الله وإيثار مرضاته، ومن بقي ينتظر مثله ونيته وطويته ألا يزول عن ذلك، وما بدلوا تبديلا ولا غيروا. وفكر في قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[1].

فالنظر كيف تمنن عليهم بأنه صرف عنهم هؤلاء الجنود وهذه العساكر بالريح وكفاهم قتالهم، وما نال المسلمين من الريح أذى مع قرب المسافة، بل باتوا منها في كل عافية وبات أولئك في كل بلية، وهذا بخلاف ما جرت به العادة، ولا يقدر على صرف الريح في الجهات وإجرائها على هذه السبيل إلا الله عز وجل.

وهمَّ النبي ﷺ بالانصراف إلى المدينة والرجوع اليها بعد انصراف الأحزاب، فأتاه جبريل يقول له عن الله: لا تنزع حتى تصير إلى بني قريظة، فسار اليهم ونزل عليهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب منه ﷺ مع كثرتهم فامتنعوا بحصونهم، وقال ﷺ: يا يهود يا أخوة القرود، فقالوايا محمد: ما عهدناك فحاشًا، فقال ﷺ: غدرتم بني ونبذتم عهدي، إنا إذا حلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. وبعث اليهم أبا لبابة بن عبد المنذر فقالوا له: يا أبا لبابة أتنزل على حكم محمد قال: نعم، وأومى بإصبعه إلى حلقه، أي أنه الذبح، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] وما كان من أبي لبابة إلا إيماء بإصبعه، فأخبر الله بما كان من إشارته وما كان بينه وبينهم.

قال أبو لبابة والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، وذهب من وجهه فأوثق نفسه بسارية في المسجد، فقال ﷺ أما أنه

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٥.

(٢) سورة الأنفال آية ٢٧ .

لو أتاني لا ستغفرت له فأما إذا فعل فلا أحله حتى يكون الله هو الذي يحله، وما زالت سارية أبي لبابة معروفة في المسجد، وهذه آية أخرى.

وقد كان بنو قريظة في كثرة وبأس ونجدة، فقذف الله في قلوبهم الرعب عند نزول رسول الله ﷺ. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ. فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فجاء على حمار أقمر، وقد كان أصابه يوم الأحزاب سهم، وكان يقول اللهم لا تمتني حتى ترينني في بني قريظة ما أحب، فقال له رسول الله ﷺ: إن بني قريظة قد قد رضوا بك وبالنزول على حكمك، فقال له الأوس: يا أبا عمرو هم حلفاؤك، فقال سعد: قد آن لي أن تأخذني في الله لومة لائم؛ لينزلوا حتى أحكم. فلما نزلوا قال: قد حكمت بقتل مقاتلتهم، وسبي ذريتهم، وغنم أموالهم، وأن تكون للمهاجرين دون الأنصار.

فقال رسول الله ﷺ: قد حكمت بحكم الله، وهو معنى قوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1].

فانظر كيف يمتن عليهم بهذا، والعدو والولي يسمع، ولا يجوز أن يمن عليهم إلا بما قد كان وعملوه. فانظر كم علم في قصة الأحزاب، وكم آية وكم دلالة، وكم أعجوبة.

وقد دخل في هذا الباب باب آخر وهو بانفراده حجة تامة، بل في كل موطن منه حجة ودلالة، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا

(١) سورة الأحزاب آية ٢٦-٢٧ .

وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[١].

فانظر كيف يخبر عن عدوه أنهم سيقولون ما فيه حجة عليهم قبل أن يقولوه، فيقولون ذلك ويفعلون كما أخبر عنهم، وهذا من عجب الأمور، ولها نظائر، مثل قوله عز وجل: ﴿سَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾[٢] وقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣] ومثل هذا كثير.

فإن قيل: فما ينكرون أن يكون قد أخبر عنهم بعد أن قالوا.

قيل له: هذا لايفعله عاقل بأن يقول لأمر قد كان وجد وفرغ منه هذا سيكون، فيكذب هذا الكذب الظاهر عند قوم يعلمون أنه قد كذب وهو يدعي الصدق والنبوة وأنه وجده حجة الله وصفوة الله وأنه لا أحد معه في ذلك ولا بعده إلى يوم القيامة، فاعرف هذا وراعه في أماكنه من القرآن إذا تلوته.

وتأمل قوله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[٤] وقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[٥].

فإن العاقل لا يفعل هذا بمن أظهر له الطاعة وإن كان متهمًا الباطنية، بل يظهر له القبول، هكذا حق الرئاسة وهو الذي تقضيه السيادة وهو الحزم ومن سوء التدبير إظهار تهمة مثله، وهذا لا يفعله إلا من كان نبيًا أو رسولاً لله صادقًا كما قد تقدم شرح ذلك لك.

---

(١) سورة التوبة آية ١١-١٢ .
(٢) سورة الإسراء آية ٥١ .
(٣) سورة الفتح آية ١٥ .
(٤) سورة الفتح آية ١١ .
(٥) سورة الفتح آية ١٢ .

ومما يؤكد ذلك، أنه ﷺ كان يوصي أمته بالمداراة وبالصفح وبترك المكاشفة، ويقول هذا هو الحزم. وقد كان ﷺ واجدًا على بعض أحياء العرب، فوردوا عليه وهو معرض عنهم، فقام رجل منهم فأنشده[1]:

فحي ذوى الأضغان تستبقِ ودهم تحيتك الحسنى فقد يُرفع النفل
وإن أظهروا سوءًا فأظهر كرامة وإن كتموا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه استماعه وإن الذى قالوا وراءك لم يُقَل

فأقبل ﷺ ورضي عنهم وقال: إن من الشعراء لحكماء، وإن من البيان لسحرًا، وأعاد قول الشاعر: وإن الذى قالوا وراءك لم يقل. استحسانًا له واستصوابًا، فلما صار إلى أمر الله عز وجل ما رضي إلا بمواطأة القلب للسان، وأن يكون الظاهر مثل الباطن، ثم ما رضي بأن يكون هذا القول منه ومن عنده حتى قال هذا القول قول الله لا قولي، وقول خالقكم وخالق[2] العالم بضمائركم وما أخفيتم.

وتأمل قوله: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3] إلى قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4].

فانظر كيف يقول لأولئك لما جاءوا معتذرين وسامعين ومطيعين: إنكم قد قلتم بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، وإن قعودكم لم يكن لشغلكم بأموالكم وأهليكم بل لظنكم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلي أهليهم أبدًا.

ويقول لهؤلاء الآخرين: الذين بهم ضعف بصيرة وقد جاءوا مذعنين وسامعين ومطيعين: لم تؤمنوا، ولكن قولوا: أسلمنا: فلا يسوغهم دعوى

---

(١) كتب في هامش المخطوط: «سبب قول النبى ﷺ: «إن من الشعراء لحكماء».
(٢) في المخطوط: «خالقي».
(٣) سورة الحجرات: آية ١٣.
(٤) سورة الحجرات: آية ١٧.

الإيمان مع ضعف البصيرة، ويقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[1] فيعطيهم العطاء الجزيل ويقول: هؤلاء الذين ضعفت بصائرهم أعطيهم أتألف قلوبهم لا نحطاط منزلتهم عن منازل المهاجرين والسابقين والأنصار، فيسميهم باسم المنقصة ويلبسهم جلباب المذلة وقد أعطاهم تلك العطايا الوافرة، وهذا خلاف تدبير عقلاء الناس وحكماء البشر، فإن هذا عندهم تضييع للمال وتنفير للناس وجناية على الملوك ونقض عرى الملك وهدم لأركانه.

وفي هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] وهذا من ذلك الجنس الذى قدمنا، وهي في قوم من المنافقين معروفين وهم عبد الله بن أبى سلول الخزرجي وأتباعه، وهذا كان سيدًا في الخزرج مطاعًا عظيم الشأن، وكان متقدمًا في الأوس والخزرج جميعًا، وكان رأس المنافقين، يطيعونه ويرجعون إليه، وكان قد حسد رسول الله ﷺ وسبق عليه أمره، وكان سعد بن عبادة يقول للنبى ﷺ أصبر عليه يا رسول الله واحتمله، فوالله لقد نظمنا خرزات تاجه لنسوده حتى جاءنا الله بك.

وكان معه على النفاق جماعة من الأوس والخزرج يؤملونه ويرجون أن تكون الرئاسة، وكانوا يعدلون قومهم من الأنصار في محبتهم لرسول الله ﷺ وأتباعه. وكانت الأنصار تحب إسلامه وإجابته وإخلاصه، فيذكرون له صحة الإسلام وحسنه، ويوبخونه في إبطائه عنه، فيجيبهم إلى ذلك فيسلم؛ ثم ينظر في أمره وأنه ليس له منزله خبّاب بن الأرتّ، وسهيل بن سنان، وزيد بن حارثة،

---

(١) سورة التوبة: آية ٦٠.

(٢) سورة المنافقون: آية ١.

(٣) سورة المنافقون آية ٨.

وبلاب مولى أبى بكر الصديق، وعمّار بن ياسر، وأمثالهم من الموالي مع حبه للرئاسة إذ هو رئيس وسيد قبل الإسلام، فيتحسر، ويحمله الحسد، فيرجع ويتردد. وقد كان في بعض غزوات رسول الله ﷺ، إما في غزوة المريسيع أو غيرها قد ازدحم الناس على الماء لضيقه، فوقع بين الجهجاه الغفاري صاحب عمر بن الخطاب وأجيره وبين رجل من الأنصار، فقال الغفاري: يا للمهاجرين وقال الأنصارى: يا للأنصار، وبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول وهو في مجلسه وفي جماعة من خواصه وخدنه وعبيده وأهل بيته، وكان في هذه الغزاة، فأظهر التعجب من أن يقال ياللمهاجرين وأن يكون أحد يعازّ الأنصار وقومه من الأوس والخزرج وأخذ يلوم الأنصار في مجيئهم بهم وأنهم جاءوا بقوم فقراء فواسوهم ومطرودين فآووهم وأنزلوهم ديارهم ومخذولين فنصروهم، فلما قووا واشتدوا واثبوهم وقالوا: يا للمهاجرين، وهذا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك، وينبغي لهم أن يقطعوا النفقة عنهم حتى ينفضوا عن هذا الرجل ولئن رجعنا إلى المدينة لنأخذنهم بهذا، ولنضحن لهم، وليخرجن الأعز منها الأذل. وكان قد قال هذا بحضرة ثقاته وظن أن ذلك لن يبلغ رسول الله ﷺ، فجاء زيد بن أرقم الأنصاري، وكان من أهل بيته فأعاد على رسول الله ﷺ المجلس، فذكر ﷺ ذلك للأنصار فجاءوا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول فذكروا له ذلك، وإن زيدًا بن أرقم حكى ذلك عنه، فقال: ما قلت هذا، وحلف، وقال: قد كذب من ذكر ذلك عني، وأنا أعرف بحق رسول الله ﷺ من أن أقول هذا، وزيد بن أرقم غلام حدث لا يدري ما يقول. فقالوا له كذا الظن بك، وأقبلوا على زيد بن أرقم يعذلونه وجاء هو إلى رسول الله ﷺ مع أصحابه وخاصته بكذبون زيدًا فيما حكاه، ويحلفون على ذلك، وأنهم يعتقدون في قلوبهم وضمائرهم نبوة رسول الله ﷺ وصدقه، فقبل رسول الله أيمانهم وسمع منهم وأقبل عليهم يكذب زيد بن أرقم ولا صدقه، بل أمسك عنه. فأخذه ﷺ الوحي كما كان يأخذه، فأقبل على أصحابه ودعا بأبي بكر وعمر،

وتلا السورة، وأخبرهما بصدق زيد بن أرقم وأنه على حداثته قد أجاب وصدق. فقال له عمر بن الخطاب يا رسول الله لم لا تأذن في قتل هذا، تقدم إلى بشر بن البر الأنصاري أو إلى غيره يقتله، وتلا رسول الله ﷺ السورة على الأنصار، فقاموا إلى عبد الله بن أبى بن سلول فتلوا ذلك عليه وعرفوه ما كان، وعذلوه ولاموه ولاموا أصحابه ومن حوله ممن يريد هذا، وقالوا: إلى كم يا ويحك، وإلى متى تكون هذه الفضائح ويفضحكم الله مرة بعد مرة، توبوا وارجعوا، فقالوا نتوب ونرجع.

وجاء ابن لعبد الله بن أبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ وكان مخلصًا وكان برًا بأبيه شديد المحبة له، فقال: يا رسول الله ، قد بلغني ما كان من أبي وما أحسب ولدًا أبرّ بوالدٍ مني ولكني لا أرضى له ما يأتيه، وقد بلغني ما أشار به عمر، فإن أردت قتله فمرني بذلك فإني والله أقتله مع حبي له وبرّي له، وإن قتله غيري خشيت ألا أصبر أن أرى قاتل أبي في الناس فأقتله فأدخل النار، فقال له النبى ﷺ لا تقتله وتأنَّ به.

ولما رجع رسول الله ﷺ من هذه الغزاة يريد المدينة، فما قرب اعترض ابن عبد الله بن أبي بن سلول هذا أباه واعتقل جمله وثنى ركبته، فقال له أبوه: مالك يا بني وما تريد، فقال له: والله لا دخلت المدينة أو يقول رسول الله ﷺ الأعزّ وأنا الأذل، فما زال يدافعه ويسأله تركه وتخليته فلا يفعل، ويمر به الناس على طباقتهم في سيرهم، منهم من يسأله الصفح عنه والتخلية له ومنهم من لا يفعل، وأصحابه وأعوانه يرون ذلك به ويشتد حسرتهم عليه، فما أفرج ابنه عنه حتى قال ذلك ونادى على نفسه. فتأمل ما في هذا من دلالات وعلامات وآيات بينات تدل على عاقل استدل بها على نبوة محمد ﷺ وصدقه وفيه من ذلك أكثر مما شرحنا فتأمله تجده وهؤلاء المنافقون كبراء ورؤساء في قومهم، وكانوا مطاعين ولهم أتباع، وقد كان اليهود يجلسون إلى عبد الله بن

أبي بن سلول ويعظمونه ويحدّونه ويزيدون في ذلك لأجل عداوته للنبي ﷺ، ويبعثون الأوس والخزرج على طاعته، ويقولون: سيدكم القديم ولحمكم ودمكم، وإنما محمد وأصحابه دخلاء فيكم. وقد كان الجدّ بن قيس أحد السادة القدماء المطاعين في نبي قيْلة من الأوس والخزرج، وقد كانت سبيله في النفاق سبيل عبد الله بن أبي بن سلول.

فإن قال قائل: قد لعمري كان هذا من سيرة محمد ﷺ وأفعاله وهو بخلاف سيرة حزمة الملوك، ولن يقوم الملك بمثل هذا التدبير، ولكن إنما فعل محمد هذا في آخر أمره وحين صار بالمدينة وصار في عساكر وجماعات، وحين استتب أمره، فألا فعل هذا بمكة؟

قيل له: ما في هذا طعن ولا جئت بشيء، بل ما حصلت ولا تدري ما تقول ولو سكت لكان أستر لك، لأنك ما زدت على أن قلت: هذا كان بالمدينة ولم يكن بالمدينة، وكان حين صار في عساكر وجماعات، فما في هذا من الطعن، ولو قد تدبرت لعلمت أن هذا زائد في حجته. لأنه بالمدينة ما رجع عن دعوى النبوة والصدق والعصمة كما كان بمكة، وحين صار بالمدينة وفي عسكر وعدوه في عسكر يقصده ويطرقه، فهو إلى الرجال وإلى التدبير بتدبير حزمة الملوك وطلاب الدنيا ومداراة من يتهم باطنه وترك مكاشفة مثل هذا أولى، فما زدتنا بسؤالك هذا إلا قوة في الحجة. وقولك: ألا كان هذا بمكة؟ فكيف يكون بمكة وما هناك منافق البتة؟، وكيف ينافقونه بمكة وهو وأتباعه كانوا بها مقهورين مغلوبين وبها من المسلمين من يكتم إيمانه خوفًا من قريش، والذين كانوا يظهرون إيمانهم بمكة قبل الفتح أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وأشباههم، من تلك الجماعة المعروفة، على ما عليهم في ذلك من الشدة والأذية والبلية من قومهم وسواهم من الرجال والنساء كانوا يضعفون عما يقوى عليه أولئك فيكتمون إيمانهم، فمن أين يكون بمكة منافق. والأمر بالضد مما كان بالمدينة فكأنك تقول له ﷺ: لِمَ لم تكذب وأنت بمكة كما صدقت وأنت بالمدينة، وأيضًا

فهو كان بمكة وحيدًا فريدًا،[١] ومن معه في ذلة وقلة وقبل أن يتبعه أحد، فما لان لعدوه بل كاشف وبالغ فيما يغضبهم ويغيظهم وجبَههم بالإكفار والجهيل بمثل قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[٢] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ومثل قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[٣] ومثل قوله: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾[٤] ومثل قوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[٥] إلى غير ذلك من نظائره مما لم يكاد يحصى لكثرته، وهذا لا يفعله حازم ولا عاقل إلا أن يكون نبيًا كما تقدم لك شرحه في غير موضع من كتابك هذا.

وتدبر قوله في أصحابه ببدر: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[٦] كيف يوافقهم على اليسير مما كانوا يجدونه من الشدة والخوف من عدوهم لقلهم وكثرة عدوهم.

وفي هذا المعنى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٧] وقوله في قصة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ

---

(١) في المخطوط: وحيد فريد.
(٢) سورة الزمر: آية ٢٤.
(٣) سورة الفرقان: آية ٤٤.
(٤) سورة الروم: آية ٥٢.
(٥) سورة فاطر: آية ٢٢.
(٦) سورة الأنفال: آية ٦.
(٧) سورة الأنفال: آية ٢٦.

مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[١] فواقف الذين أرادوا من الدنيا المباح من الغنائم على هذا المقدار، بخلاف تدبير البشر ومن له حرص على طلب الرئاسة والملك، حتى قال ابن مسعود: ما شعرت أن أحدًا يريد الدنيا حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ لأن المهاجرين والأنصار ابتعوا النبيّ ﷺ لصدقه ونبوته لا لغير ذلك، فإن اتفق لهم رزق مباح لم يكن بذلك بأس.

إلى قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾[٢].

وهذا كان قاله عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه يوم أحد وهو من ذاك الجنس.

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[٣] والعاقل إذا تدبر علم أنهم لو لم يكونوا كذلك في ضمائرهم وطويتهم لما قاله فيهم ولما أخبر به عنهم، لأنهم كانوا ألفًا وأربع مائة، فكان لا يأمن أن تكون طويتهم غير خالصة وإن أظهروا له ذلك، فكان لا يأمن أن يهجم منهم على خلاف ذلك، فيتبينون كذبه وهذا لا يفعله عاقل، فكيف بمثل محمد ﷺ وهو يدعي النبوة والصدق ويدعو الناس إلى أن يعتقدوا ذلك فيه، ويريده منهم ومع هذا فيقول إن هذا ليس بقولي وإنما هو قول ربّي وربّكم علام الغيوب. وهذا فيه علوم بغيوب كثيرة (التى)[٤] لا يعلمها إلا الله ولا يطلع عليها إلا صفوته وأنبياؤه. ولو كان فيهم من ليس بخالص الطويلة لرجع إلى نفسه فكان يظهر ذلك ولو بعد حين، ولا يدع

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٤.

(٣) سورة الفتح: آية ١٨.

(٤) هكذا في المخطوط.

التحدث به وإن لم يجبَه رسول الله ﷺ وكان يتحدث مع اليهود والرؤساء الذين ذكرناهم من أعداء النبى ﷺ ويخبرهم بما كان عليه وما قاله، وكانوا يسرّون بعثرة لرسول الله ﷺ وزلّة إن لو كانت وحاشاه من ذلك، فكان يبلغ ذلك رسول الله، والمسلمون ويتحدثون به، ويشيع الأمر، كما ظهر أمثاله من قول المنافقين مع إخفائهم لذلك. فتعلم حينئذ بدليل عقلك أن بواطنهم له ﷺ كانت كظواهرهم كما أخبر وكما قال.

وقد كانوا يتعنتون ويتعلقون بالضعيف من الأمور ويسألون، ألا ترى أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد كان يكتب لرسول الله ﷺ، فكان إذا انتهى إلى آخر القصة وقد أملى عليه رسول الله ﷺ: «وكان الله» فيقول ابن أبي سرح: غفورًا رحيمًا، أو عليمًا حكيمًا، فيقول رسول الله ﷺ: هكذا نزلت فاكتب، فقال للناس: إنما يأتي محمد بهذا من تلقاء نفسه، وحكى مثل هذه الصورة، فكيف بما فيه الحجة لهم عليه. ولهذا نظائر مما قد سألوا عنه وترددوا فيه، وليس أحد من أصحابه من أخبر عنه مع كثرتهم شكّ أو تردد أو أخبر عن ضميره بخلاف ما أخبر ﷺ.

ومن هذا الجنس قوله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1] فأخبر عن المهاجرين المكيين بأنهم هاجروا لله وابتغاء لمرضاة الله وشهد لهم بالصدق، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] فشهد لهم بالفلاح، وهم خلق كثير، أخبر عن طوياتهم وضمائرهم، وهذا من الغيب لا يعلمه إلا الله.

---

(١) سورة الحشر: آية ٨.

(٢) سورة الحشر: آية ٩.

ومن هذا الجنس، إخباره في القرآن عن عائشة وصفوان بن المعطل الذى رميت به، فأخبر عز وجل ببراءة ساحتها وبغفلتها عما رميت به وأنّ ذلك لم يخطر ببالها ولا همّت به فضلا عن أن تفعله، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١) وقد جلد رسول الله ﷺ أولئك القذفة وقال: الله أمرني بجلدهم وأخبرني بكذبهم في قذفهم عائشة، وتلا عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(٢) اى ما ضركم بل كانت عقبى لكم، فإن الله عز وجل تولى إكذابهم بنفسه، وأنزل فيه القرآن المعجز والآيات البينات التي لا إكذاب لها إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

ثم عاتب المؤمنين الذين حكوا ما قالته القذفة ووبخهم على ذلك وعلى إمساكهم عن تكذيب أولئك والرد عليهم وحسن الظن بعائشة وبصفوان فال عز وجل: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(٤) حتى قال: ﴿فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(٥). فانظر إلى هذا التعنيف النازل بالمؤمنين الذين حكوا ما قالته القذفة في عائشة وقالوا: إنما قلنا ما قيل لا أنا قذفنا ولا انا شهدنا.

ثم عاد إلى من كان له في القصة هوى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٦) فتأمل هذا الوعيد لمن كان له في هذا هوى وقوله للمؤمنين الأبرياء: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة النور: آية ٢٣.
(٢) سورة النور: آية ١١.
(٣) سورة النور: آية ١١.
(٤) سورة النور: آية ١٢.
(٥) سورة النور: آية ١٣.
(٦) سورة النور آية: ١٩.
(٧) سورة النور آية: ١٧.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[1] أى إن هذا مما يزينه الشيطان ويدعو إليه والشيطان لا يريد إلا الباطل ثم قال: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[2] أى لولا لطفه بخلقه وحسن اختياره لهم وجميل تدبيره لما زكى منهم أحدًا أبدًا، ثم قال: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

وهذا القول يقوله الله لأبي بكر، فإن مسطح بن أثالة كان من بنى عبد مناف وكان ابن خالة أبي بكر وكان في عياله، وقد كان خاض مع الخائضين في شأن عائشة، فلما أنزل الله براءتها حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح وقد كان تاب وندم وكان من المهاجرين، فلما قال الله هذا القول لأبي بكر الصديق قال: بلى، يارب نحب أن تغفر لنا، فرده في عياله.

فتأمل هذا النكال النازل بالقذفة والفضيحة الحالّة بهم والتوبيخ لمن أصغى لحديثهم والتزكية العظيمة لهذه المقذوفة، وقد وقع في هذه القصة جماعة كثيرة فيما يكرهون على طبقات، وهذا قول يغيظ ويغضب ويخرج المخبآت ويذكر بالأحقاد وبالأمور القديمة ويبعث على البهت فضلا عن الإنصاف، فكيف بأمر قريب العهد. ولهؤلاء القذفة والخائضين نفوس وأكباد وعشائ وأحباب، وفيهم مثل عبد الله بن أبي بن سلول، ويتصلون بأعداء رسول الله ﷺ من اليهود وغيرهم، ولهم الحرص الشديد على كذبه أو زلة تقع منه فما قدروا، فلو لم يكن في هذه القصة إلا إنسان واحد أو عائشة وحدها وكان هناك كذب لظهر، فكيف وفيها جماعة، فلو لم يكن الله قد أطلعه

---

(١) سورة النور: اية ٢١.

(٢) سورة النور آية ٢١.

(٣) سورة النور آية: ٢٢.

وأخبره بصدق عائشة وصفوان لما أخبر بهما فإن كان لا يأمن كذبهما، هذا لا يختاره عاقل سيما وهو يدعى الصدق.

فقد علمت أن الملوك وطلاب الدنيا لا يؤمن عذرهم وكذبهم وبهتهم بل تلك عادّتهم وسجياتهم، وهم يطوون أسرارهم ولا يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد من ثقاتهم ممن يشاركهم في ملكهم ونعمهم، ثم لا يأمن إن أظهر ذلك على نعمته ودمه، ثم لا يلبث السرّ الذى هذه سبيله أن يظهر ذلك في زمن الملك من جهته أو من جهة ذلك الثقة الذي أطلعه عليه، وليس للناس بإظهار ذلك عناية، وربما لم يكن في ذلك ما يتعلق بالدين وفيه معاداة الناس كلهم، وعنايتهم به وطلب عثرات من أتى به شديدة، ويتمنون وقوع ذلك منه. ومن لا عيب فيه ولا عادة في وقوع الكذب منه ومن يدّعي العصمة فصغار الأمور كبيرة منه، وقد يشيع عليه بما يشبه العيوب والذنوب بأنه عيب وذنب، ويتعلق عليه بمشكل الألفاظ ومتشابه الكلام. وقد كان أعداؤه ﷺ معه ربهم من الكثرة والقوة والملك والسطوة ما قد عرفه الناس، ومع هذا فقد ارتد من ارتد من قبائل العرب بعد موته، وناظرهم أصحابه وحاجوهم وحاربوهم فما أمكن أحد من أولئك الأعداء من المرتدين ولا المنافقين ولا اليهود ولا النصارى أن يقيموا حجة في هفوة أو زلة أو فيما يشبه ذلك كان منه ﷺ مع حاجاتهم إلى ذلك وحرصهم عليه، فكانوا يدفعون بأس أصحابه عن أنفسهم بذلك ويوقعون الخلاف بينهم بذلك، لأن أصحابه إنما استحلوا دماء من خالفه ديانة لأنهم نبى ولأنه صادق لا يخطئ ولا يزل ولا يكذب، ولو وقع منه شيء من ذلك لما حلت نصرته ولا تصديقه ولا اتباعه فلو كان فيمن زكاه وشهد على ضميره ونيته من ليس بما أظهره من تزكيته لأنه يعلم أنما أظهر تلك التزكية والتصديق حيلة عليه وخديعة له وسخرية منه، فكيف والذين زكاهم وشهد على ضمائرهم حيلة عليه وخديعة له وسخرية منه، فكيف والذين زكاهم وشهد على ضمائرهم جماعات كثيرة في أوقات متغايرة، وكذا من شهد بنفاقه، فأعرف هذا فإنه باب كبير من ورائه أبواب في دلائل نبوته ﷺ.

ثم عدت إلى ما كنت بدأت به، فمن هذا الجنس قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

فتبين رحمك الله ما في هذا، فقد تقدم لك شرح نظائره، ثم قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[2] وهذا في قوم معروفين استأذنوه عليه السلام ثم قال فيهم: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[3] وهذا خلاف تدبير عقلاء البشر، فإنهم إذا خلفوا من خلفوا خوفًا من ضرره وهربا من شره وقدموا من قدموا ليهلك فيستريحون من شره لا يفضحون بذلك ولا يظهرونه وإنما يظهرون خلافه، فيقولون لمن خلفوه إنما خلفتك لحاجتي لتكون من ورائي وليقتي بك ولتعويلي عليك، وكذا يقولون فيمن يقدمونه، ثم قال: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[4] يريد ما كان من حرصهم على قتلك واستئصالك حتى طمعوا فيك، لوحدتك ثم لضعف من ابتعك حين آمنوا بك ولقلتهم حتى جاء ما وعد الله من النصر والظفر والظهور، ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[5] وقد كان ﷺ قال للجد

---

(١) سورة التوبة: آية ٤٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٤٣-٤٤.

(٣) سورة التوبة: آية ٤٦- ٤٧.

(٤) سورة التوبة: آية ٤٨.

(٥) سورة التوبة: آية ٤٩.

بن قيس: هل لك في جلاد بني الأصفر. يعني الروم. فقال هو وغيره: بل تأذن لنا فنقيم ونتخلف ولا تفتنا فتغلظ المحنة علينا بأمر إيانا بالخروج وترك إعفائنا منه، فلعل ذلك أن يثقل علينا فنخالف أمرك فيه.

فقال الله: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[1] أي فيما ذكروا أنهم يحذرون من المعصية والخلاف سقطوا، والنار من ورائهم محيطة بهم على أفعالهم وتفاقهم وقعودهم عنك.

ثم قال: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[2] وليس من تدبير عقلاء البشر أن يقول لمن أظهر صاعته وأنفق فيها ماله وبذل فيها مهجته: إن هذا لا ينفعك ولا يقبل منك ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[3] وهذا من ذلك الجنس في المكاشفة ثم قال: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[4]، فقد كان للجد بن قيس ولعبد الله ابن أبي وأضرار بهما ممن نافق من الأوس والخزرة أموالهم ضاهرة ونعم وأولاد، وهم جماعة كثيرة، فأخبر الله نبيه بسوء أحوالهم في الباطن وأن أموالهم وبال عليهم والله بعذبهم بها بما يكفلهم من إنفاقها، فهم ينفقون أموالهم ويكدون أبدانهم ويقاتلون أولياءهم مع أعزائهم، وهذا من ذلك الجنس. وليس يريد كفرهم، وإنما يريد تعذيبهم بكفرهم في حال كفرهم، كما قد يقول الرجل لصاحبه: إنما أريد تعودني وأنا مريض، وأنما أريد أن تزورني وأنا محبوس، وإنما أريد أن تسد خلي وأنا فقير، وهو لا يريد أن يكون مريضًا ولا محبوسًا ولا فقيرًا، وإنما يريد أن يعامل بهذه المعاملة وهو في هذه

---

(١) سورة التوبة آية ٤٩ .
(٢) سورة التوبة آية ٥٣ .
(٣) سورة التوبة آية ٥٤ .
(٤) سورة التوبة آية ٥٥ .

الأحوال، فكذا أراد الله تعذيبهم وهم كافرون، أي في حال كفرهم ولأجل كفرهم وإن كان لكفرهم كارهًا. ثم قال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[1] وهذا في قوم من المنافقين معروفين اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض: لئن كان ما يقول محمد حقًا لنحن شر من الحمير، فقال رجل كانوا يظنونه منهم وهو مسلم: والله الذي لا إله إلا هو إنه لحق ولأنتم شر من الحمير، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال أنتم القائلون كذا وكذا، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله ذلك له، فقال رجل منهم: قد والله قلنا، وأرى الله عرض علي التوبة وبذلها لي، والله لأقبلنها؛ فتاب واعتذر، وهو معروف.

وقد قلت لك: إنك بعقلك تعلم أن هناك قومًا[2] هذه صفتهم وقد قالوا ما حكاه الله عنهم وإن لم نعرف أسماءهم وأعيانهم. وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾[3] فقد كان رسول الله ﷺ يعطيهم من الغنائم إذا حضر الحرب على ظاهر الإسلام، ويعطيهم من الصدقات بظاهر الفقر، فأذكرهم الله بهذه النعم، وهذا كقولك ما لي إليك ذنب إلا نصحي لك ومحبي إياك.

ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[4] إلى قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5] وقد كان النبي ﷺ حث الناس على الصدقة، فجاء عمر بصدقته

---

(١) سورة التوبة آية ٧٤ .

(٢) في المخطوط: قوم.

(٣) سورة التوبة آية ٧٤ .

(٤) سورة التوبة آية ٧٥-٧٦-٧٧ .

(٥) سورة التوبة آية ٧٩ .

وجاء عبد الرحمن بصرة يعجز عنها الكف، وجاء عثمان أيضًا بما هو معرف من عظم صدقته، وكذلك غيرهم من الصحابة. وجاء رجل يقال له أبو عقيل بصاع من تمر، فقال له المنافقون: لو كان لنا مال لأعطينا أكثر مما أعطى عبد الرحمن، وقالوا لصاحب الصاع: إن الله لغني عن صاعك هذا فلمزوا من إعطاء الكثير ومن إعطاء القليل، فلهذا قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[1] فلهذا فصل الله عز وجل بين الفريقين. وأما قوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[2] فإن الله لا يفعل سخرية الساخرين، ولا ظلم الظالمين، ولا استهزاء المستهزئين، ولا خداع الخادعين، ولا جور الجائرين، ولكنهم لما جازاهم على سخريتهم جاز أن يقال سخر منهم، وهذا جزاء، كقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[3] و﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[4] فالأولى سيئة والثانية جزاء. ثم قال: ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾[5] وهؤلاء قوم معروفين بأعيانهم تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وقالوا هذا القول، وكان قد خرج في أشد ما يكون من الحر، وكانت نصارى العرب قد خرجوا إلى ملك الروم يحثونه على قصده لرسول الله ﷺ، وقالوا له: هو وأصحابه في جهد وضر شديد، فانتهز الفرصة فيهم. فبادره رسول الله ﷺ وخرج بأصحابه وهم في ضر شديد وإعواز وعدم القوت، وتوجه نحو الشام في عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، وأقام بتبوك وملك الروم بدمشق، فراسله النبي ﷺ ودعاه إلى إجابته والدخول في طاعته ووبخه وكان له معه ما هو معروف.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾[6]، والمعذر بالتشديد هو

---

(١)، (٢) سورة التوبة آية ٧٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٤ .

(٤) سورة الشورى آية ٤٠ .

(٥) سورة التوبة آية ٨١ .

(٦) سورة التوبة آية ٩٠ .

المقصر الذي لم يستفرغ وسعه، والمعذر بالتخفيف الذي قد قدم فيما بينه وبين أخيه وصاحبه ما هو غاية في العذر[١] وكان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ: المعذرون بالتخفيف، ويقول: لعن الله المعذرين، ذهب إلى الذى يعتذر بغير عذر.

ثم قال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

وكذا يجب على المسلم أن يرضى ما رضي الله وعمّن رضى الله ويسخط ما سخط الله، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يرضى بقدر الله» فالرضى بقدر الله واجب، وسخط المعاصي فرض لازم، فالويل لمن رضي بمعاصي الله والويل لمن لم يرض بقدر الله[٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾[٤] إلى قوله: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وكان رجل من كبار الأوس يقال له أبو عامر عبد عمرو بن صيفي وكان يعرف بأبي عامر الراهب، وقد كان أظهر الترهب وأنه يطلب الحنيفية ودين الحق. فلما قدم النبى ﷺ المدينة لقيه أبو عامر فقال: يا محمد إلام تدعو، فقال إلى دين الحنيفية الذي تطلبه بزعمك، فقال له: ما أنت عليه؟ فقال له رسول الله ﷺ: بلى، ودعاه فأبى، وحسد رسول الله ﷺ، وقال له أبو عامر: الكاذب منا أماته الله غريبًا شريدًا طريدًا، يعرض برسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: نعم فعل الله ذلك بالكاذب منا. ثم أقبل أبو عامر على قومه ينهاهم عن اتباع رسول الله ﷺ وعن طاعته ويجتهد، وأعلام رسول الله ﷺ وآياته تتزايد وتظهر ويكثر أتباعه من قوم أبي عامر فيزداد غيظًا. واتخذ

---

(١) في هامش المخطوط: المعذر بالتشديد: المقصر

(٢) سورة التوبة: آية ٩٦.

(٣) في هامش المخطوط: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يرضى بقدر الله».

(٤) سورة التوبة: آية ١٠٧.

مسجدًا يجمع إليه الناس فيحادثهم وينهاهم من اتباع رسول الله ﷺ، ويزعم أنه على الحنيفية، وأن دينه سيظهر ويصير في جماعة وعز، فكان يجتمع إليه قوم من المنافقين، ويجلس إليهم اليهود ويقوون منهم الخلاف على رسول الله ﷺ ثم إنه خرج إلى مكة وبعثهم على غزو النبيّ وحربه، ويقول: أنا معكم وقومي من الأوس معكم، فإذا لقيتم محمدًا صرنا إليكم. وكان معهم في وقعة أحد فلماذا تنازلوا نادى أبو عامر قومه معاشر الأوس، أنا أبو عامر فقالوا: لا مرحبًا بك يا فاسق، وسبّوه ولعنوه، فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. وقد كان خرج إلى مكة من قومه جماعة كثيرة وهم على رأيه في رسول الله ﷺ، وكانوا نحو خمسين رجلاً، فقاتلوا المسلمين مع قريش قتالا شديدًا، ثم صار أبو عامر إلى الروم ولقي قيصر ملك الروم بالشام، فدعاه إلى قتال رسول الله ﷺ والمسلمين وحرَّضه على ذلك، وهوَّن أمرهم عنده بضعفهم وفقرهم وقلة عددهم وكثرة عدوّهم، وخوَّفه العواقب إن هو لم يفعل ذلك بما لا يأمنه من قوة الإسلام. ثم إن أبا عامر مات بالشام طريدًا غريبًا وحيدًا كما دعا رسول الله ﷺ، وهذا أيضًا من أعلامه في إجابة دعوته.

وقوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[1] دلاله على أن الفتنة بمعنى النعمة[2] وفيها دلالة على أن الله قد أنعم على الكافرين والمنافقين بنعمة الإيمان، وأكمل عقولهم وقواهم وأزاح عللهم، فبدلوا نعمة الله كفرًا وأبطئوا عن التوبة والتذكر.

وانظر إلى ما قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3]: وهذه نزلت في هؤلاء

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٦.

(٢) في الهامش بالمخطوط: قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ دلالة على أن الفتنة بمعنى النعمة.

(٣) سورة التوبة: آية ١١٨.

الثلاثة من المؤمنين خاصة، وهم[١]: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرادة ابن ربيعة وكلهم من الأنصار، وكان هؤلاء تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندموا واغتموا غمًّا شديدًا وحزنوا لذلك حزنًا عظيمًا ضاقت صدورهم به، فأخبره الله عز وجل عن صدق نياتهم وخلوص ضمائرهم وما فيها من الحزن والغمّ بتأخرهم وما كان ليتلو ذلك إلا وقد علم وتيقن ما في ضمائرهم، وفي هذا من الدلالة مثل ما تقدم، والكلام فيه مثل الكلام في ذلك، فاعرفه.

وكان[٢] تخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزاة خلق كثير من المسلمين نحو ثمانين رجلاً، وذكروا ما أخرهم، وصدقوا عن أنفسهم، ومنهم من لحق به بتبوك قبل أن يرجع إلى المدينة. وكانت هذه الغزاة صعبة شديدة، خرجوا في الحر الشديد وكانوا في إضافة[٣] وفي قلة من الزاد، وكان الزمان حريقًا، وأقبل ﷺ من تبوك، حتى إذا دنا من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا عنه من المؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: لا يُكلمنّ رجلٌ منهم ولا يُجالس حتى آذن لكم، وأعرض عنهم رسول الله ﷺ والمؤمنون حتى بن الرجل ليعرض عن أبيه وعن أخيه، وحتى إن المرأة لتعرض عن زوجها. فمكثوا أيامًا، ويجعلون يعتذرون إلى النبي ﷺ بالجهد، ويحلفون له، فرحمهم ﷺ واستغفر لهم. وقالت بنو سلمة لكعب بن مالك امش إلى رسول الله ﷺ فاعتذر إليه وبايعه لعله يقبل منك، فأقبل معهم ورسول الله ﷺ جالس في المسجد يبايع، فسلم عليه فأعرض عنه، فقيل إن كعبًا قال: لم تعرض عني يا رسول الله، فوالله ما نافقت ولا ارتبت ولا بدلت، فقال رسول الله ﷺ: فما خلفك عني؟ قال: أما إني لا أعتذر إلى رسول الله ﷺ بعذر، لقد كنت شابًا موسرًا ولكن أصابني فتنة فتخلفت.

---

(١) جاء في هامش المخطوط قوله تعالى: ﴿وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾. نزل في كعب بن مالك هو وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة.

(٢) في المخطوط، وكان كان.

(٣) هكذا في المخطوط،

فسمع مرارة بن ربيعة وهلال بن أمية بالذى قال كعب فقالا مثل قوله، فأعرض عنهم رسول الله ﷺ، فقاموا من عنده، فقالت بنو سلمة لكعب: والله ما أصبت ولا أحسنت ولو اعتذرت لقبل منك، فقال لهم كعب: والله لا أجمع اثنتين: أتخلف وأكذب وقد اطلع الله على ما في نفسي فقالت بنو سلمة: والله إنك لشاعر مفوه بليغ جرئ على الكلام، فقال كعب: لن أجترئ على الكذب.

فمكث هؤلاء الثلاثة قريبًا من شهرين لا يكلمهم أحد من المسلمين،ولا يجالسهم، حتى أعرض عنهم نساؤهم، ورجلوا أشد الوجل، وخرجوا من أهاليهم إلى البرية، وطلبوا الفساطيط يأوون اليها بالليل ويتعبدون الله. وكتب جبلة بن الأيهم ملك غسان إلى كعب بن مالك أنه بلغنا أن صاحبك نبابك وأقصاك هلم إلينا فإن لك متحولا ولا تقم على الهوان؛ فأقبل كعب بكتابه إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال يا رسول الله: مازال إعراضك عني حتى رغب فيَّ المشركون يدعونني إلى الشرك، فلم يراجعه رسول الله ﷺ. فرجع كعب أحزن ما كان وأشده كربًا، وقد أقام أيامًا في الفسطاط ينتظر التوبة وهو بالحمى فضاقت عليه برحبها، فرجع إلى سلع فكان يقيهم به بالنهار صائمًا ويأوى إلى داره بالليل، حتى نزلت التوبة له ولصاحبيه ورضي الله عنهم ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة فقال من الليل فتوضأ واستن ثم قال لأم سلمة: الحمد لله الذى أنزل لإخواننا التوبة، فقالت: من هم يا رسول الله، فقال: كعب ابن مالك وصاحباه، فقالت أم سلمة: أفلا أبعث إليهم وأبشرهم، فقال رسول الله ﷺ: أصبحي، فصلى رسول الله ﷺ الصبح وانصرف، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار فقال لهم: قد تاب الله على إخوانكم الليلة، ففرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا وسعى أبو بكر وعمر يبتدران كعبًا ليبشراه، فسبق أحدهما صاحبه، فارتقى المسبوق على سلع فصاح: يا كعب بن مالك، أبشر بتوبة الله، فقد أنزل الله فيكم القرآن. وكعب جالس في مسجد قومه فسمع الصوت فوقع ساجدًا يبكي سرورًا بالتوبة واجتمعت إليه بنوسلمة رجالهم ونساؤهم يهنئونه بالتوبة، وأقبل كعب سريعًا إلى رسول الله فبايعه

واستغفر له وبشره بالتوبة التي نزلت فيه وفي أصحابه، وقرأ عليه: «لقد تاب الله على النبيّ» إلى آخر القصة.

وهذا كعب بن مالك أحد الشعراء والسادة والبلغاء وكذلك صاحباه فمن السادة، وكانت هذه حالهم في تخلفهم وما امتحنوا به وما صدقوا به عن أنفسهم والإخبار عما في ضمائرهم، لتعلم حسن هذا التدبير وإدلال رسول الله ﷺ بالصدق والأمانة والبعد من كل ريبة ومن كل حيلة ومما جرى عليه أمر البشر، فتدبر ما يقرأ ويكتب لتعرف أعلام النبوة وتظهر لك حيل المحتالين على المسلمين في تشكيكهم فيها وإخراجهم من الإسلام من حيث لا يشعرون، فإن القوم الذين قدمنا ذكرهم حين كادوا الإسلام تستروا بالتشيع، وقالوا: يجوز على أنبياء الله وحججه تزكية المشركين ومدح الكافرين وشتم النبيّين والبراءة من الصديقين على طريق الخوف والاتقاء، وإنما قالوا ذلك لما قد قهرهم من مدح رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين لأبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعة من المهاجرين والأنصار، فقالوا: إن هذا المدح على طريق الخفية من هؤلاء واتقاءلهم ولبأسهم، وأنت ترى مكاشفة رسول الله ﷺ للأعداء في حال الوحدة وهو خائف يترقب، وهو في أيديهم وفي قبضتهم مقهورًا مغلوبًا، وقد تقدم شرح ذلك، وتقدم لك أيضًا أن هؤلاء الهاجرين والأنصار قد علمنا أنهم أحباب رسول الله ﷺ وأولياؤه وثقاته وأُمناؤه، وأنه كان يحبهم ويتوالاهم، وأن العلم بذلك قبل العلم بنبوته، وأنه قد فرض على أمته وأهل طاعته محبتهم وموالاتهم كما فرض عليهم البراءة من الوليد بن المغيرة، والنضر بن الحرث، وعتبة بن ربيعة وأمثالهم من أعدائه من قريش ومن اليهود والنصارى على ما تقدم لك من شرح ذلك، وقد تقدم لك أيضًا أن أنبياء الله وحججه لا يجوز أن يتقوا وإن خافوا وإن غلبوا وإن قهروا.

وأعجب الأمور أن رؤساء الجاهلية وأقيال العرب والمتبوعين والمطاعين كعيينة بن حصن. والعباس بن مرداس، وعامر بن الطفيل. وأظرابهم قالوا لرسول الله ﷺ: إنا نحب أن يجلس إليك ونسمع منك ونحن وجوه الناس،

وإنما حولك هؤلاء الفقراء والعبيد كصهيب بن سنان، وخبّاب بن الارتّ، و عمّار ابن ياسر، وبلال، وأرواح ثيابهم كأرواح الجلود العطنة، ونكره أن ترانا العرب معهم، فاجعل لنا يومًا ولهم يومًا. فهمَّ رسول الله ﷺ بذلك ولم ير به بأسًا، وجاء لإسلام هؤلاء وأنهم متبوعون مطاعون يسلم بإسلامهم الخلق الكثير، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] وقد كان قوم من هؤلاء الرؤساء الذين قدمنا ذكرهم قالوا: يقدم هؤلاء العبيد والموالي والفقراء علينا، فأنزل الله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وفي هذا المعنى نزل قوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[3].

فانصرف رسول الله ﷺ عن ذلك العزم ولم يفرد أولئك الرؤساء بمجلس يخصهم، وقدّم هؤلاء الفقراء والعبيد والموالي، فكانوا أقرب الناس إليه، ويجلس اليهم ما جلسوا، ولا يقوم عنهم حتى يقوموا. وقد كانوا عرفوا ذلك منه، وكانوا إذا أقبلوا يقول لهم: سلام عليكم مرحبًا بكم، بأبي من عاتبني فيهم ربّي اللهم أحيني مسكينًا وأمتي مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين. يريد المتواضعين للمسلمين.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٥٢.

(٢) سورة الأنعام: آية ٥٣ - ٥٤.

(٣) سورة الكهف: ٢٨.

فتأمل هذا التدبير، وكما كان من الرؤساء من قريش وغيرهم يبطئهم عن الإسلام أنهم قد علموا أنهم إذا أسلموا لم يتقدموا عند رسول الله ﷺ على هؤلاء الموالي والعبيد، بل لم يكن رسول الله ﷺ يسوي بينهم، وإنما كان الناس يتقدمون عنده على السابقة والهجرة والبصيرة. فلما فتحت مكة وأسلمت العرب ويئس عدو الإسلام من الطمع فيه تحدث أبو سفيان وأمثاله من بني عبد مناف، أن الذي أخرنا عن الإسلام أنا حسدنا بني عمنا من بني هاشم ولقد أو في الحارث بن هشام على مرقب حين خرج من مكة، فم يبق بها نافخ ضرمة إلا خرج مودعًا له ومستوحشًا لفراقه، فقال: ما بلد أحبّ إليَّ من بلدكم ولا قوم أحب إلي منكم، ولكن حدث هذا الأمر فسبق إليه رجال ليسوا من أقدارنا، ولئن سبقنا عمار وبلال وصهيب إلى الإسلام فلن يسبقونا إلى الجنة، وأنا حبيس في سبيل الله ما حييت. فكان منه ومن عكرمة ابن أخيه وغيرهما من بني مخزوم وهم كانوا أعداء رسول الله ﷺ ومن مسلمة الفتح من الجهاد في سبيل الله وفي قتال المرتدين بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى ردوهم إلى دين الإسلام، ومن جهاد الفرس والروم، ومن الصبر على تلك الشدائد، ما هو مذكور في كتب العلماء.

وفي هذا المعنى ما كان آذنُ عمر بن الخطاب يخرج ويبابه سادات العرب فيقول: أين بلال؟ أين عمار؟ أين صهيب؟ أين خبّاب؟ فينهضون مقدَّمين مكرَّمين، وبالباب سهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وعيينة بن حصن، ونُظرائهم من السادة. فنظر إليهم سهيل بن عمرو وقد تمعرت وجوههم من جلوسهم بالباب والإذن لأولئك قبلهم فقال لهم: مالكم معشر العرب تتمعر وجوهكم، هؤلاء قوم دُعوا ودُعينا فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم اليوم بباب عمر، لَما أعدَّ الله لهم في الجنة غدٌ أفضل، وهذا سهيل بن عمرو كان من أعداء رسول الله ﷺ ومن أشدهم عليه وهو من مسلمة الفتح، فاسمع قوله وتأمل أمره.

وكما يحدَّث معاوية وآل أبي سفيان وآل مروان في ملكهم وفي سلطانهم

بعد مضي أئمة الهدى أن الذي أخرهم وأخر أباهم عن الإسلام الأنفة أن يكونوا كمن قدمنا ذكره.

ومنهم من أخره الحسد والمنافسة، ومنهم من أخره منع إخوانه وساداته وهذا باب مفرد.

وقد علمت أن الملوك والجبابرة قد تكون لهم الهفوات والزلات فتقف عليها ثقاتهم ووزراؤهم وشركاؤهم في الملك ومن يخافهم على دمه في التحدث بعيوبهم فيحدثون به في حياتهم ويلقونه إلى ثقاتهم ولا يملكون أنفسهم لثقل الكتمان على الناس، فأما إذا مات الملك أو الرئيس فيحدثون به كل أحد مجاهرين، هكذا جرت العادة ودلت عليه العبرة، وهؤلاء تحدثوا بهذا في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته، لتعلم وثاقة أمر النبوة وأن أمرها وأساسها وضع على مثل الجبال. وما كنا في هذا الباب وإنما كنا في بطلان قول الذين رموا الأنبياء بكتمان الحق وإظهار الباطل، فاتصل الكلام بما أشبهه فخرجنا إلى هذا.

ثم عدت إلى بيان بطلان قول هؤلاء فتأمل قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا﴾[1].

وقد كان بعض سادات العرب وأغنياؤهم قصد رسول الله ﷺ ببعض شأنه، فأقبل ﷺ على كلامه رجاء إسلامه وأتاه في تلك الحال ابن أم مكتوم - وكان أعمى - يكلمه، فتشاغل رسول الله ﷺ عن جوابه بذلك السيد فعاتبه الله هذا العتاب في شيء هذا قدره.

فكيف يسوغ أن يظن عاقل متأمل بالنبيّ ﷺ ما ادعاه هؤلاء عليه!!

---

(١) سورة عبس: الآيات ١- ١٠.

وتأمل قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾(١).

وهذه نزلت في قصة زينب بنت جحش وكانت بنت عمة رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد زوجها بزيد بن حارثة وكان مولى.

وكان قد زوَّج أيضًا ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ المقدادُ بن الأسود وكان من الموالي أراد رسول الله ﷺ بطلان مذاهب الجاهلية في الأكفاء، وكانت زينب هذه شرسة الأخلاق كثيرة النقار لزيد والخصومة له، وكان ذلك يشق على رسول الله ﷺ ويكره أذيّة زيد، وكان زيد لا يصبر ولا يطيق أخلاقها وكان رسول الله ﷺ كالمتندم على ترويجها به ويقول في نفسه: ليتني كنت تزوجتها فكنت أحق باحتمالها والصبر عليها من زيد وغيره لقربها مني وكان زيد إذا همّ بطلاقها نهاه رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: اصبر واحتمل وأمسك عليك زوجك، فلم يصبر زيد، فطلقها، فأحب رسول الله ﷺ أن يتزوجها فكره استحياء من زيد وغيره، فقال الله عز وجل له هذا القول في شيء ليس بمعصية، ثم أمره بالتزويج بها لما أراده ونواه من صلة رحمه، ولئلا يخرج المؤمنون في التزوج بأزواج أدعيائهم ومن يتبنّونه ولم يكن من أصلابهم، فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(٢).

فتأمل هذه الأقوال في هذه الأمور الصغار، وتأمل دعوى هؤلاء على رسول الله ﷺ كأنما يحدثونك عن مسيلمة أو عن كسرى وقيصر في سيرتهم، لا عن محمد رسول الله ﷺ وسيرته وتدبير الله له.

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٣٧.

وباب آخر

[الإخبار بنصر المسلمين]

وهو قوله عز وجل: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1] فكان ذلك كما أخبر، حتى تم أمر المسلمين وكان العقبى لهم، وإن كان في خلال ذلك قد كانوا ينالون من المسلمين ويقتلون منهم إلا إن العقبى كانت لهم عليهم كما قد تبينت ولهذا قال ﷺ: «نصرت بالرعب». وقد كان المسلمون يرون ذلك ويتحدث المشركون بما يجدونه منه وقالت بنت للحكم بن أبي العاص لجدها: ما رأيت قومًا كانوا أسوأ رأيًا ولا أعجز في أمر رسول الله ﷺ منكم يا بني أمية، فقال: لا تلومينا يا بنية لا أحدثك إلا ما رأيت بعينيّ هاتين. تواعدنا مع قريش لنأخذه، فلما دنونا إليه سمعنا صوتًا خلقنا ظننا أنه ما بقي بتهامة جَبَل إلا تفتت، فغشي علينا وما عقلنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله، ثم تواعدنا ليلة أخرى فلما جاء نهضنا إليه، قال فرأيت الصفا والمروة قد التقى أحدهما بالآخر فحالا بيننا وبينه فوالله نفعنا ذلك حتى رزقنا الله الإسلام.

ولقد قال لهم أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم، قالوا: نعم قال: فالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، فقيل له ذات يوم: هو ذاك يصلي فانطلق إليه ليفعل به ما قال، فما رأيناه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده، قالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: بيني وبينه حدق وهول وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوًا.

واجتمع مرة الملأ من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فقالوا: قد التبس علينا أمر محمد، فلو علمنا رجلا يعلم الشعر والسحر والكهانة بعثنا به إليه يكلمه ويأتينا ببيان أمره، فقال عتبه بن ربيعة: أنا أعرف الكهانة والشعر والسحر، وقد علمت منه علمًا فأنا آتيه فلا يخفي عليَّ أمره، فأتاه فقال: يا محمد، أأنت خير أم عبد الله، أأنت خير أم هاشم، أأنت خير أم عبدالمطلب،

---

(١) سورة الأنفال: آية ١٢.

فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا وتفعل وتفعل، إن كانت بك الرئاسة جعلناك رئيسًا علينا حتى تموت، وإن كان بك الباه زوجناك عشرة نسوة تختارهن من قريش، وإن كان بك المال أعطيناك ما تستغني به وعقبك، والنبيّ ﷺ ساكت؛ فلما فرغ عتبة قال له رسول الله ﷺ: يا أبا الوليد قد قلت فاسمع: ثم قرأ ﷺ ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] فأمسك عتبة على فم رسول الله ﷺ وقال: أنشدك بالرحم لما كففت. ثم رجع إليهم فقالوا له: يا أبا الوليد رجعت بغير الوجه الذى ذهبت، فقال: يا قوم أمسكوا عن هذا الرجل فإن تم أمره فشرفه لكم، ومضى إلى منزله فقال أبو جهل: ما أرى عتبة إلا قد صبأ واتبع محمدًا، انطلقوا بنا إليه. فأتوه، فقال أبو جهل: ما نراك إلا قد صبأت واتبعت محمدًا، فغضب وأقسم ألا يكلم محمدًا أبدًا، ولكني أتيته، وقص عليهم ما قاله له، قال: فقرأ عليَّ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت على فيه وناشدته بالرحم وعلمت أن محمدًا لا يكذب، وخفت أن يأتيكم: العذاب.

وقال الزبير بن العوام وهو يذاكر الناس بحال رسول الله وحالهم بمكة قبل الهجرة: رأيت نفرًا من المشركين حول الكعبة ورأسهم يومئذ أبو جهل، وأقبل رسول الله ﷺ وهم يتآمرون بمناهضته، فقال لهم: قبحتم وقبح ما اجتمعتم له، قال: فخرسوا فما منهم إنسان يكلمه، ولقد رأيت أبا جهل وهو يعدو في إثر رسول الله ﷺ يعتذر إليه ويقول: يا محمد أمسك عنا ونمسك عنك، ورسول الله ﷺ يقول: لا أمسك عنك حتى تؤمن بالله أو أقتلك، فقال أبو جهل وانت تقدر على قتلي، قال له رسول الله ﷺ: الله يقتلك ويقتل هؤلاء معك، فولّى أبو جهل وأصحابه فما بقي من أولئك أحد إلا قتل. والصحابة يتذاكرون ذلك ويتعاودونه.

---

(١) سورة فصلت: آية ١٣.

وقصة أخرى كانت لقريش مع رسول الله ﷺ بمكة، وقد قدم رجل من أراش بإبل له إلى مكة، فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها، فأقبل الأراشيُّ حتى وقف على نادي قريش، فقال: يا معشر قريش، إني غريب وابن سبيل، وقد غلبني أبو الحكم بن هشام على حقي، فرجل منكم يأخذ حقي منه ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد. فقال أهل المجلس للأراشيّ: ترى ذلك الرجل، يعنون رسول الله، إنه نديم أبي الحكم، إذهب إليه فهو يأخذ لك حقك منه، يهزءون به لما يعلمون من شدة عداوة أبي جهل لرسول الله ﷺ، والأراشي لا يعرفه. فأقبل الأراشيّ حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حقي قبله وأنا غريب وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي حقي فأشاروا عليَّ بك، فخذ لي منه بحقّي رحمك الله، فقام رسول الله ﷺ معه، فلما رآه أهل المجلس قد قام معه قالوا لرجل منهم: اتبعه وانظر ما يصنع. فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي جهل فضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال محمد: اخرج إليَّ، فخرج إليه وما معه روحه وقد امتقع لونه فقال له رسول الله ﷺ: اعط هذا الرجل حقه، فقال: نعم، لا يبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ فقال للأراشيّ: الحق بشأنك، فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرًا، فقد والله أخذ لي حقي، وجاء الرجل الذي بعثوه معه، قالوا له: ما الذي رأيت؟ قال عجبًا من العجب، والله ما هو إن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه، فأعطاه حقه. ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له: مالك، والله ما رأينا مثل ما صنعت، وتحدثوا بأنهم هم أشاروا على الأراشيّ محمد هزءًا بالأراشي لما سألهم وجيهًا عندك ونديمًا يأخذ له حقه، وما ظنوا أن رسول الله ﷺ يسأله ولا إن سأله في الأراشي إلا منعه وحرمه ونال منه ومن محمد، فقال لهم أبو جهل: ويحكم والله إن هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت رعبًا وخرجت إليه وإن فوق رأسه

لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني.

ومرة أخرى اجتمع الملأ من قريش في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى بآلهتهم كلها لو قد رأينا محمد لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت بنته فاطمة عليها السلام تبكي حتى دخلت عليه فقالت: يا أبت إن هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك ولو رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك فقال:

يا بنية أدني وضوءًا، فتوضأ ثم دخل المسجد، فلما رأوه قالوا: هاهوذا، هاهوذا، وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم على صدورهم فلم يرفعوا إليه بصرًا ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم وأخذ قبضة من تراب ثم قال: شاهت الوجوه ثم حصبهم بها فما أصاب رجل منهم من ذلك الحصباء إلا قتل كافرًا.

ومرة أخرى كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد عثمان بن عفان، وفي الحجر عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل، وأمية فمر بهم رسول الله بين أبي بكر وعثمان، فلما حاذاهم أسمعوه ما يكره، وأدخل أصابعه في أصابع عثمان وطافوا جميعًا فلما حاذاهم أيضًا قال أبو جهل: والله ما نصالحك ما بلَّ بحر صوفَة، أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا. ثم مضى عنهم وصنعوا به في الشوط الثاني كذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، وقام أبو جهل يريد أن يأخذ مجمع ثوبه، فدفع عثمان في صدره فوقع لقفاه، ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط، فأفرجوا عن رسول الله ﷺ، فقال لهم ﷺ:

أما والله ليحلّنَّ بكم عقابه عاجلاً، فما منهم رجل إلا رُعب وأخذه إفكك، ثم قال لهم وهم في تلك الحال من الرعب:

بئس القوم أنتم لنبيّكم، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أبي بكر وعثمان فقال: «أبشرا فإن الله مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيّه، إن هؤلاء الدين ترون يجرى الله ذبحهم بأيديكم عاجلاً، فقال عثمان وهو يذاكر الصحابة

بهذه القصة: فوالله لأجرى الله ذبحهم على أيدينا يوم بدر.

وقال بعض العرب: وقد كان مع عدو رسول الله ﷺ في وقعة حنين: إن محمدًا لما أخذ كفًا من الأرض ورمانا به وقال شاهت الوجوه، وجدنا في قلوبنا الرعب.

ولسنا نقول: إن الله كان يمنع ﷺ في كل وقت ويرعب عدوه منه في جميع الحالات، بل قد ضربوه وسحبوه وخنقوه ووضعوا التراب على رأسه والسّلا والفرث وأخافوه، ولكن بينّا أن الرعب قد وقع كما قال الله وقامت به الحجة وانتفضت به العادة، فليس يقدح في ذلك أن لا يكون في كل وقت، كما أن العادة انتقضت بقتال الملائكة يوم بدر، فليس يقدح في ذلك ألا يكونوا قاتلوا يوم أحد.

وبـــاب آخـــر
[فى الدلالة على نبوته]

في الدلالة على نبوته، أن بنى النضير من اليهود غدروا به بعد مهادنة كانت بينه وبينهم، فأرسل إليهم بعد أن سار إليهم ونزل عليهم: أنكم غدرتم بي ونقضتم الصلح الذى كان بيني وبينكم، ومع هذا يصعد عمرو بن جحاش ليطرح عليَّ صخرة ليقتلني حتى أطلعني الله على ذلك، فاخرجوا من حواريّ. فأرسل إليهم عبد الله بن أبي سلول بغير واحد من أصحابه يشجعهم ويقول لهم: لا تخرجوا م دياركم فزنا معكم ومن ورائكم، فإن قاتلكم محمد قاتلنا معكم ونصرناكم، وإن أخرجكم خرجنا معكم، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر: آية ١١-١٢.

قتلا رسول الله ﷺ هذه على الناس وأخبرهم بما كان من المنافقين وبما أسرُّوه إلى اليهود ونادى بفضحهم، ثم أخرج نبي النضير من ديارهم وأجلاهم فلم يخرج معهم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه كما ضمن لهم وقد قاتلهم النبى ﷺ فما نصروهم.

فتأمل كيف أخبر بما أسّروا وبما تراسلوا وبما قد كان من كيدهم ومحالا يكون إن لو كان كيف كان يكون، ثم كان جميع ذلك كما أخبر وكما فصل، وفي هذا غيوب كثيرة لا تكون لاحد من المتخرصين، إلا لنبيّ صادق من الله.

ولقد ركب ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده من مرض أصابه على حمار عليه أكاف فوقه قطيفة فدكيّة مختطمة بحبل من ليف، وأردف أسامة بن زيد ابن حارثة، فمر ﷺ بعد الله بن أبي بن سلول وهو في ظل مُزاحمٍ أُطمه وحوله خلق كثير من المشركين ومن اليهود ومن المنافقين، وكان فيهم من المسلمين عبد الله بن رواحة وسعد بن الربيع وخارجة بن زيد بن أبي زهير وبشير بن سعد فتذمم رسول الله ﷺ من أن يتجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم ثم جلس فقرأ القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، وذكّر به، وحذَّر وبشّر وأنذر، وعبد الله زامٌ لا يتكلم حتى فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، فقال ابن أبي سلول: يا هذا ما أحسن ما تقول إن كان حقًا، فلو أنك جلست في بيتك فمن أتاك حدثته ولم تعرضه على من لا يريده، وشيع بعض اليهود كلامه، فأقبل سعد بن الربيع على اليهودي وقال: مالك ولهذا لا أم لك، كف عن هذا المنطق، فقال ابن أبي سلول: وما قال؟ يذهب محمد إلى من أخرجه من بلاده ومولده فأما من لم يخرجه فلا يغشاه، وقال زيد بن اللصيب معينًا لعبد الله: انظر يا محمد إلى الذين جاءوك فأخرجوك من بلادك فاتهم واترك من لم يدعك. وخاض المسلمون الذين كانوا في المجلس. وناظروا ووعظوا عبد الله مع إكرامهم لهم وهيبتهم له. إلى أن قال عبد الله بن رواحة: بل اغشنا بهذا في منازلنا ورحالنا فإنا نحب ذلك. فاغتاظ ابن أبي بن سلول مما كان وقال في ذلك:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تذل ويعلـوك الذين تضارع
وهـل ينهض البازي بغير جناحـــه وإن قص يوماً ريشه فهو واقع

ثم قال رسول الله ﷺ وركب حتى أتى سعد بن عبادة وذكر له ما كان من عب الله بن أبي بن سلول فقال له سعد: يا رسول الله، والذى أكرمك بالنبوة لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه، أنشدكم الله أتعلمون ذلك، قال القوم: نعم، فما يرى إلا أنك نزعت شيئًا في يديه، قال سعد: والله ليرى أنك نزعت ملكه، لقد جئت. وإنا لنجمع الخرز لنعقد على رأسه التاج، وأنت أحق من عفا عنه لأنه خالك.

فتأمل ما في هذا وانظر كيف يتكلم كل أحد بما عنده غير خائف ولا هائب، وانظر إلى عبد الله وتلك الجماعة من قومه، واليهود الذين قد زينوا عداوته لرسول الله ﷺ. وقد دعاهم رسول الله ﷺ إلي دينه واحتج عليهم وتلا القرآن، فما أتوا بشيء يقدح فيما تلاه واحتج به، ولا قالوا هذا كلام يقدر على مثله، ولا أتوا بشيء أكثر من قولهم له: ما نريد أن تتلوه علينا ولا تدعونا إليه.

وهذا عبد الله بن أبيّ عربي فصيح ومفكر داهية وملك من الملوك وكذلك من معه فصحاء بلغاء وأعداء، لتعلم وضوح هذا الأمر ويأس الأعداء من قدح فيه، واعرف هذه المجالس والمواطن والمقامات.

ولقد قال له مربع بن قيظيّ من بني حارثة بن الحارث حين اجتاز رسول الله ﷺ عليه في حائطه ومعه أصحابه عامدًا إلى أحد، لا أحل لك يا محمد إن كنت نبيًا أن تمر في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، فابتدره القوم، فقال لهم رسول الله ﷺ: دعوه فهذا أعمى القلب.

وكم كان القوم يقولون للأنصار جئتم بغريب وغرباء فقراء وعاديتم الأمم

وطمعتم في الجنة، جنة لعمري من حرمل، وطمعتم في الحياة بعد الموت، وهيهات لما توعدون. وترد الأجوبة عن ذلك مما هو في القرآن من أنه إن لم يكن ها هنا إعادة ومجازاة فخلق العباد لهو ولعب كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[2]. أى ليس هذا الأثر وهذا الفعل فعل من يجوز أن يكون منه لعب أو لهو أو عبث أو ظلم أو جور. ثم بيّن اقتداره على الإعادة مما هو مذكور في سورة بني إسرائيل، وفي سورة يونس، وفي سورة الروم، وفي سورة الواقعة، إلى أن قال رسول الله ﷺ: يا عجبًا كل العجب للشاكّ في قدرة الله وهو يرى خلقه، ويا عجبًا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، ويا عجبًا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور، ويا عجبًا كل العجب للمختال الفخور وإنما خلق من نطفة وهو يعود جيفة وهو بين ذلك لا يدري ما يفعل به، إلى غير ذلك مما كان يذكره ﷺ ويذكره أصحابه رحمهم الله مما أصله في القرآن، ولم تكن العناية تشتد به استغناء بالقرآن ولأنه تنبيه على ما وضعه الله في العقول فهو محتلٍ بمن نظر ثم فكر واعتبر.

وقد كان لعبد الله بن أبي سلول حين أظهر الإسلام مقام يقومه كل جمعة، إذا جلس رسول الله ﷺ ليخطب الناس فيقوم عبد الله ويقول: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم كرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعزّروه واسمعوا له وأطيعوا، ويجلس، حتى إذاس صنع يوم أحد ما صنع، ورجع بالناس، قام يوم الجمعة يفعل ما كان يفعل، فأخذ الأنصار بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١١٥.

(٢) سورة الأنبياء: آية ١١٦ - ١١٨.

يتخطى رقاب الناس ويقول: والله لكأنما قلت هجرًا أن قمت أسدد أمره فوثب علي أصحابي يحذبوني ويعنفوني كأني قلت هجرًا، قالوا: ارجع يستغفر لك رسول الله، قال: والله ما ابتغي أن يستغفر لي، فاجتمع إليه قومه ممن على رأيه وفي نفاقه، واليهود يتوجعون له ويقعون في رسول الله ﷺ والمسلمين، ويدبرون الرأي ويعملون الحيل في شيء يصنعونه بالأنصار ليصدوهم عن اتباع رسول الله ﷺ فلا يجدون، وهذا من تلك المواطن وموضع الحاجة.

ولما أخذ أولئك المنافقون في التتبع على رسول الله ﷺ، والتعرف لأخباره، والتحفظ لما يكون منه مع المسلمين ومع غيرهم، وقد اختلطوا بالمسلمين وأظهروا الإسلام، فينقلون الأخبار إلى إخوانهم وأمثالهم من المنافقين واليهود، ويحلون معهم. وكان هؤلاء المنافقون أكثر من ستين رجلاً، فلما كثر منهم ذلك تقدم رسول الله ﷺ بإخراجهم من المسجد، فقام الأنصار فأخرجوهم وسحبوهم واحدًا واحدًا، وأذلوهم، وقالوا لهم: يا أعداء الله، قد اختلطتم بنا وصليتم معنا، وأصغيتم إلى حديثنا مع رسول الله ﷺ، فلا أنتم وجدتم ما تحبون وتتمنون، ثم لا تنتهون ولا تخلصون. وهذا من تلك المواطن التي قد تقدم نظائرها وأنها لا تكون من تدبير البشر، فانظر إلى هذه المكاشفة، فلو وجدوا عثرة أو زلة أو ما يشبه ذلك لذكروه واحتجوا به، فهذا موضع الحاجة إلى ذكره، وهؤلاء المنافقون الذين سحبوا وأخرجوا من المسجد أسماؤهم معروفة وكذلك أنسابهم واحدًا واحدًا.

وفي هذا تكذيب لمن زعم أن رسول الله ﷺ كان يداهن أصحابه واتباعه ويظهر تزكيتهم ومدحهم وتعظيمهم وإجلالهم ولا ينطوي على ذلك ولا ينويه ولا يضمره، وهذا يقوله من زعم أنه من المسلمين، وإنما وضع هذا من أراد الطعن في الإسلام وتحيير المسلمين وتشكيكهم وإخراجهم من الإسلام من حيث لا يشعرون.

ثم انظر إلى اليهود: منهم من نبي قينقاع، مثل زيد بن الصليت، وسعد ابن حنيف، وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وعزيز بن أبي عزيز،

وغيرهم من رؤساء نبي قينقاع إلى نبى النضير ورؤسائهم، كحييّ بن أخطب، وأخيه أبي ياسر، وجدي بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن أبي الحقيق، وسلاَّم بن أبي الحقيق، وأمثالهم من رؤساء بني النضير. وإلى نبي قريظة ومن رؤسائهم، كعب بن أسد وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب، والزبير بن باطابن وهب، واعزال بن شماويل، وقزوم ابن كعب، ونافع بن أبي نافع، ووهب بن يهوذا، وأسامة بن حبيب، وغيرهم من رؤساء بني قريظة. فهؤلاء كانوا مع رسول الله ﷺ بالمدينة وحول المدينة وإلى من يحبذون[1] رؤساءهم، فقد كانوا حين سمعوا لرسول الله ﷺ وهو بمكة وما ادَّعاه من النبوة ثقل ذلك عليهم سيّما على أحبارهم ورؤسائهم، فجردوا في عداوته وظاهروا قريشًا والعرب عليه ونهوهم عن أتباعه وتصديقه.

وكانت قريش تشكوهم إليهم، وكان من يختاز من أهل مكة في متجرهم إلى الشام يذكرون لهم ذلك، وفي قريش من يقصدهم لهذا، كالنضر بن الحارث وأمثاله يطلبون منهم ما يكون فيه تكذيب لرسول الله ﷺ وما ينفر الناس عنه وعن القبول منه مما يجدونه في كتبهم، ويأثرونه عن أنبيائهم ورؤسائهم، فيقولون لهم: سلوه عن يوسف وما كان من أمره وإلى أي شيء انتهى، فينزل القرآن بذلك، فإذا أخبروهم قالوا لهم: سلوه عن أصحاب الكهف من هم وكم عدتهم، فينزل القرآن بذلك، فإذا أخبروهم قالوا لهم: فاسألوه عن رجل مؤمن سار من مغرب الشمس إلى مشرقها، فينزل القرآن في ذي القرنين، إلى غير ذلك. فلما نزل رسول الله ﷺ لمدينة وجاورهم وصار معهم، كانت عداوتهم أشد، وشغلهم به ﷺ وبالمسلمين والدخول بينه وبين الأوس والخزرج والنهي عن اتِّباعه. وكانوا معدن للشر والشبه والفتح على العرب أبوابه الضلالة، وفيهم شجاعة وثروة، وكان كيدهم أحدّ من سيوفهم وأنفذ من رماحهم. وقد رحل بنو النضير حين أجلاهم رسول الله ﷺ إلى

---

(١) في المخطوط، يحبذو.

قريش وبعثوهم على حربه وقصده، وكان من بنى قينقاع وقريظة وخيبر ما هو مذكور وشرحه يطول.

فانظر هل ظفروا مع طول هذا الطلب والحرص بزلة أو هفوة أو عثرة أو ما يشبه ذلك. وقد كان منهم باليمن وبعدن وبوادى القرى خلق كثير يمدون هؤلاء الذين بالمدينة ويصنعون صنيعهم في إلقاء الشبه للعرب، فتأمل هذا فكم فيه من نور وهدى.

ولقد كان هؤلاء وجميع أعداء رسول الله ﷺ يتراجعون أمره فيما بينهم، فإذا هم لا يجدون مطعنًا ولا مغمزًا. كالذي كان من نبي قريظة قبل النكث ونقض عهد رسول الله ﷺ، حين قال عمرو بن سعد للزبير بن باطا: أطيعوني وتعالوا نتبع محمدًا، فوالله انكم لتعلمون أنه نبيّ قد بشّر به علماؤنا، منهم. ابن الهيبار، وأبو عمير بن حواش ممن قدم الينا من علماء بيت المقدس يتوكفان قدومه، وأمرانا باتباعه وأن نقرئه منهما السلام، ثم ماتا على دينه ودفناهما بجزيرتنا هذه. فأمسك القوم فلم يتكلم منهم أحد. فأعادوا الكلام، فقال الزبير: قد قرأت صفته في كتاب باطا التي أنزلت على موسى.

وذكروا صلاح بن الهيبار، وأنه حين حضرته الوفاة قال: ما الذي ترون؟ أخرجوني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع، فقالوا: أنت أعلم، قال: أتوكف خروج نبىٌ قد أظلكم زمانه، هذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن أدركه فأتبعه، فإن سمعتم به فلا تُسبقوا إليه فإنه يسفك الدماء ويسبي الذراري، فلا يمنعكم هذا منه، فقال له كعب بن أسد: فما يمنعك من اتباعه، قال: أنت، قال: كعب: ونم؟ ما حلت بينك وبينه، قال: أنت صاحب عقدنا وعهدنا، فإن اتبعته اتبعنا وإن أبيت أبينا. فأقبل عمرو بن سعدي على كعب فقال: أما والتوراة إنه للعزّ والشرف، وإنه لعلى منهاج موسى وننال مع شرف الدنيا وننزل معه ومع أمته غدًا في الجنة. قال كعب: نقيم على عهدنا ولا يخفر محمد لنا ذمة، وننتظر ما يصنع حيي بنّ أخطب، فقد أخرج إخراج

ذل وصغار ولا أراه يقر حتى يغزو محمدًا، فإن ظفر فهو ما أردنا أقمنا على ديننا، وإن ظفر بحييّ فما في العيش خير. وتحولنا من جواره. قال عمرو: ولم نؤخر الأمر وهو مقبل، قال كعب: ما على هذا فوق، متى أردت هذا من محمد أجابني. قال عمرو: بلى إن عليه لفوتًا إذا سار إلينا وتحصنّا في حصوننا هذه التي هي قد خدعتنا فلا نفارق حصوننا حتى ننزل على حكمه فيضرب أعناقنا. قال كعب: ما عندي في أمره إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا بقول هذا الاسرائيلي لا يُعرف لي فضل البتة ولا قدر النعال، قال عمرو بن سعدي: بلى، لنعرفن ذلك لك، وطال ما بينهم، ونزل قوم منهم ولحقوا برسول الله ﷺ وأسلموا. فانظر إلى طول البحث والمراجعة بينهم، وإلى أعداء رسول الله ﷺ من رؤسائهم وأحبارهم وهم يصدون عن اتباعه بجهدهم، هل يقول قائل منهم هذا الذي من غدارته ونكثه كذا وكذا، وكذبه يوم كذا، وهذا موضع الحاجة إليه وإلى ذكره، أو أن موسى قد وصّى بأن شريعته لا تنسخ، وأن السبت لا يعطل مما يدعيه اليهود، والمناظر والمراجعة بذكر بالأمور المتقادمة وتخرج الأسرار، فتعلم أنه لم يكن لجميع أعداء رسول الله ﷺ فيه مطعن ولا مغمز بوجه من الوجوه، وكم لليهود معه ﷺ من مشهد وموقف بهم الحاجة إلى ما قد ذكرنا وبيّنا.

وقد علمت مقامه بمكة وقد تفرغوا له وجعلوا شغلهم كله في طلب عثراته وفي الصد عنه، وفيهم مثل أبي لهب، وأبي جهل، وأخيه العاص، والعاص ابن سعيد، والحكم بن أبي العاص، وعديّ بن الحمراء، وابن الأصد الهذلي، وعقبة بن أبي معيط، والأسود بن عبد يغوث، وابن العيطلة وهو الحارث ابن قيس بن عديّ السهمي، والوليد وأبي وأمية بنا خلف، وأبي قيس بن الفاكه والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي، والأسود بن عبد الأشد، هؤلاء جبرانه، وكان عداوة أبي سفيان صخر بن حرب، وعتبة وشيبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو، مسلمة، والحارث ابني هشام، وأمثالهم، تصغر في جنب عداوة هؤلاء وهو

معهم وأسير في أيديهم بمكة، يضربونه، ويخنقونه، ويطرحون التراب الفرث على رأسه، ويطرحون الجيف ببابه، فيقول: يا بني عبد مناف، أي وجوار هذا.

وكان الموسم إذا جاء يخرج إلى الموسم فينذر ويدعو إلى الله تعالى ويقول:

أيها الناس، إن الذى أنتم عليه ليس لله ولا من الله، هلموا إلى عبادة الله وحده، ويتلو القرآني فيتبعوه ويضربوه، ويرمي عمه أبو لهب أعقابه حتى يدميها، ويتفرقون في الشعاب وعلى الطرق إذا جاء الموسم، ويلقون الناس ليصدوهم عن رسول الله ﷺ، فيقتسمون الطرق على عقاب مكة، فيقول لهم الوليد بن المغيرة: تفرقوا حيث يمر بكم أهل الموسم، فإذا سألوكم عنه فليقل بعضكم: كاهن، وبعضكم ساحر، وبعضكم شاعر، وبعضكم غاو يفرق بين الأب وابنه وبين الأخ وأخيه، فإذا انتهوا إليَّ صدَّقتكم. وهؤلاء الذين كانوا يفعلون هذا: حنظلة، وأبو سفيان، وعتبة، وشيبة، وأبو جهل والعاص بن هاشم، وأبو قيس بن الوليد، وقيس بن الفاكه، وزهير بن أبي أميّة، وهلال، والسائب، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، ومنبّه بن الحجاج، وأمية، وأوس بن المغيرة مولى وهب بن حذاقة، وزمعة ابن الأسود.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ ممن أسلم بمكة يخرجون فيتقون مع هؤلاء المقتسمين، فإذا ذكروا ما عندهم في رسول الله ﷺ قال لهم المسلمون: كذب هؤلاء، بل محمد رسول الله صادق يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى صلة الرحم، ورحمة اليتيم، وإلى كذا، ويتلوان القرآن وأولئك يمنعونهم ويضربونهم في الموسم الذى يأمن فيه الناس فلا يأمن فيه رسول الله ﷺ ولا أصحابه وهم يدعون إلى الله ويقولون هذا مع كونهم مقهورين مغلوبين وقليلا وضعفاء يخافون أن يتخطفهم الناس.

فتأمل هل قدرت قريش أو أهل مكة أن يقولوا فيه ﷺ أنه غدر أو كذب أو احتال أو أتى بفاحشة أو شيئًا مما يدعيه أعداؤه وملحدة زمانك، مع طول تلك السنين التي كان مقيمًا فيها بمكة منذ ادعى النبوة وهي خمس عشرة

سنة، فما زادوا في الطعن فيه على التكذيب عليه. وكان أهل الموسم إذا سمعوا قول أصحاب رسول الله ﷺ يقول بعضهم لبعض: قول هؤلاء أحسن وخير.

فتأمل رحمك الله الأمور، وأطل الفكر والتأمل وأصرّ على ذلك، لتعلم حقائق الأمور، فقد بليت في زمانك بمن يقول في الصحابة المكيين والمهاجرين والذين بنوا الإسلام وشيدوه أنهم ما اعتقدوا الإسلام قط ولا اتبعوا رسول الله ﷺ لبصيرة ولا لحجة ولا اعتقدوا نبوته ولا أضمروا محبته وتعظيمه وما اعتقدوا إلا تكذيبه ولا أضمروا إلا سقوطه واحتياله.

وهؤلاء قوم اتبعوه وهو وحيد فقير ذليل خائف مقهور مغلوب وأهل الأرض يدٌ واحدة في عداوته وعداوة أتباعه، فخرجوا باتباعه من الأمن إلى الخوف، ومن الغنى إلى الفقر، ومن العزّ إلى الذل ومن الكرامة إلى الهوان ومن الراحة إلى النصب، ومن الأوطان إلى الغربة. وزعم ملحدة زمانك أنهم فعلوا نفاقًا وأنهم كانوا منافقين فمن ينكر بعد هذا أعجوبة، أو ينفي عن الناس حماقة أو يحسن يأخذ ظنّاً، وهل هذا إلا كقائل قال: إن محمدًا نبيّ المسلمين كان ينافق قريشًا والعرب تدافعهم وإن كان قد خرج معهم إلى تلك الأمور، وأنَّ السحرة قد نافقوا فرعون وداهنوه في اتباعهم موسى وانصرافهم عنه ومكاشفتهم له حين قال لهم: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾[1] و ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2].

والأعجب من هذا، أنه ﷺ قد أوجب على العباد موالاة هؤلاء المهاجرين

---

(١) سورة طه: آية ٧١.

(٢) سورة طه آية ٧١-٧٣.

السابقين وفرض محبتهم وتعظيمهم وإجلالهم، وحرَّم سوء الظن بهم إلا أن يظهر منهم كبيرة، كما أوجب معاداة اليهود والنصارى والمجوس وأمثالهم ومن سلك سبيلهم وفرض بغضهم إلا أن يظهر منهم الإيمان.

هذا معلوم من دينه ﷺ ودعوته غير ما قد ضمنه الله كتابه من مدح المهاجرين والأنصار وملأ القرآن به، وهذا كله خلاف ما يدعيه هؤلاء الذين غرَّهم من لقنهم هذا، فإنه كاد بهذا الصنيع للإسلام والمسلمين من حيث لا يشعرون. وإنما أردنا ذكر حال أعداء رسول الله ﷺ من أهل جيرته وبلده وأهل بيته من طبقات قريش مع الدهاء، وأنهم قد توكلوا لجميع أعدائه وكفوهم وزادوهم على الكفاية، فما وجدوا شيئًا يكون لهم حجة أو شبه الحجة في إبطال أمره، فبطل كيدهم مع طول العناء وبار مكرهم كما قال الله: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾(١).

وقد خرج ﷺ إلى الطائف ودعا إلى الله وقال: أجيروني حتى أبلغ رسالة ربي ودعوا ما أنتم عليه فإن الله يسخط، وعاب دياناتهم وما كان عليه آباؤهم، وذم قريشًا بما تأتيه من تكذيبه، فما كان عندهم في ردّه شيء إلا أن قالوا له: كيف اختارك الله من بين أهل مكة ومن بين الناس كلهم وهناك من الحكماء والعقلاء كفلان وفلان، وفي أهل الطائف فلان وفلان، وإذا كان الله قد اصطفاك فكيف أحوجك إلى نصرة الناس، إلى غير ذلك مما لقوه به من الجفاء وقد غاظهم وأغضبهم ما ذكره من قبح أديانهم وتضليل آبائهم.

فانظر هل يرجعون في تكذيبه إلى حجة أو ما يشبه الحجة، وهل يجدون مطعنًا أو مغمزًا مع حاجتهم إلى ذكر ذلك في هذه المواضع.

ومن هذا الجنس، لما أمر الله عز وجل رسوله بعرض نفسه على القبائل وهو أمر معروف، وقد ذكره الناس وتحدثوا به، وممن كان يتحدث به عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما أمر الله رسوله ﷺ بعرض نفسه على القبائل، خرج

---

(١) سورة فاطر: آية ١٠.

وأنا معه وأبو بكر الصديق حتى دفعنا إلى مجلس[١] من مجالس العرب فتقدم أبو بكر مقدَّمًا في كل خير، وكان رجلاً نسّابة، فقال: ممن القوم؟ فقالوا: من ربيعة، قال: ومن أي ربيعة؟ ثم ذكر عليّ رضي الله عنه ما كان بينهم وبين أبى بكر قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر قومهم، وفيهم مفروق بن عمرو وقد غلبهم خصالا ولسانًا، وكانت له عذبتان تسقطان على تربيته، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبى بكر، فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف عن قلة، فقال أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق علينا الجهل ولكل قوم جِلّ؟ قال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين[١] نلقى، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلام على اللقاح، والنصر من عند الله: يديل علينا مرة، ويديل لنا مرة. لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: وقد بلغكم أنه رسول الله، وها هوذا. فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك فإلى ما يدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ، وقام أبو بكر يظلّه بثوب. فقال ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله، وأن تؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد ظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد، قال مفروق: وإلى ما تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ قال رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

---

(١) في المخطوط مجالس

(٢) سورة الأنعام: آية ١٥١.

قال مفروق: وإلى ما تدعو يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] فقال مفروق:

دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال مفروق: هذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى إن تركنا ديننا واتبعناك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، هذا زلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة. وإنما تكون الزلة مع العجلة. ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال:

وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فهو واب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإنما نزلنا بين ضربتين، التامة والشامة. فقال رسول الله ﷺ ما هاتان الضربتان فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، نزلنا بينهما على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، وإنّا نرى يا قرشيّ أن هذا الأمر الذي تدعو أنت إليه مما يكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم في الردّ إذ أفصحتم بالحق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم لو لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم لكم فنهض رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد أبي بكر ويقول: يا أبا بكر أية أحلام في الجاهلية - أو أية أخلاق

(١) سورة النحل: آية ٩٠.

شكٌّ الراوي الراوي أيهما قال - ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم. قال علي رضي الله عنه: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ وكانوا اصدقاء صبراء وأنفذ رسول الله ﷺ معهم بعد أن تردد إليه منهم قوم بعد قوم يسلمون وينصرفون: مصعب بن عمير رضي الله عنه لتلاوة القرآن والتفقيه في الدين، وكانت الأوس والخزرج قبائل كثيرة وعددًا جمًا فأسلموا طوعًا بهذا الشرط وغلب عليهم الإسلام. ولغلبة الإسلام على هذ القبائل ولاستبصار أهلها ما كان في الأوس والخزرج منافقون لما رأوا قومهم وقد عمهم الإسلام وكانوا كثيرًا والمنافقون قليل أحبوا أن يحقنوا دمائهم وأن يشاركوا قومهم في العز فأظهروا الإسلام وإن كانوا لا يعتقدونه.

ثم انظر إلى صنيع قريش فيمن هاجر إلى أرض الحبشة، فقد كان صار بها نحو المائة من كبار المهاجرين، واستجاروا بالنجاشي ملك الحبشة فأجارهم وقبلهم، فعبدوا لله آمنين مطمئنين واستر حوا من المكاره التي كانت تجرى عليهم من قريش فقد كانت عظيمة، فلما بلغ قريشًا أمرهم قلقوا لذلك وقاموا وقعدوا، ثم ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فيهم رجلينس منهم، وأن يهدو إلى النجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم فجمعوا له أدمًا كثيرًا ثم لم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو ابن العاص بن وائل السهمي، وقالوا لهما: إدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي، ثم قدِّموا للنجاشي فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما الملك ثم قالا لكل بطريق منهم أنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا فيهم إلى الملك أشراف قومهم ليردَّهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلا بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قرَّبا

هداياهما إلى الملك فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا ديننا ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بما عابوا عليهم وما عابوهم فيه. ولم يكن شيئ أبغض إلى عبد الله وعمرو وسائر قريش من أن يسمع النجاشي كلام المسلمين، فقال بطارقته وهم حوله صدقاء: أيها الملك، قومهم أعلا بهم عينًا فسلمهم إليهما ليرداهم إلى بلادهم وقومهم. فقال النجاشي: لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواى حتى أدعوهم وأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. ثم أرسل إليهم فدعاهم إليه. ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا أجبتموه؟ فقالوا: نقول والله ما علمنا وأمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن. وكان عمرو بن العاص صديق النجاشي قديم المعرفة به والمهاداة له، وكان يرفعه في مجلسه ويكرمه الكرام الكبيرة. فدخلوا عليه، وعمرو بن العاص عن يمينه؛ فلما بصر بهم من حول الملك قالوا لهم: اسجدوا للملك، وكان الصحابة قد جعلوا أمرهم إلى جعفر بن أبي طالب ليكلم الملك عنهم. فقال جعفر: لا نسجد إلا لله وحده، فزيرهم من حول الملك فما سجدوا فقال لهم الملك: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل، فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسبي الجواري، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن

نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام؛ فعدد عليه جعفر أمور الإسلام. ثم قال له: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحلَّ علينا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. لما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، وأخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك.؛

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه عليَّ فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾ فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: هذا من عند الله انطلقوا فوالله لا سلمتكم إليهما. فورد على عمرو والبطارقة الذين أعانوه وهاداهم ما كرهوا، وغلظ عليهم. فلما خرجوا من عنده قال عمرو: والله لأبيّتنه غدًا بما أستأصل به خضراءهم، والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد الله. ثم غدا عليه من الغد فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيمًا فأرسل إليهم واسألهم عما يقولون فيه. وبلغ ذلك المسلمين ولم ينزل بهم مثلها. فاجتمع المسلمون، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه، فقالوا: نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبيّنا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن فقال: فأرسل إليهم النجاشي، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر: نقول فيه الذى جاء به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول الحصينة. وقد كان رسول الله ﷺ أرسل عمرو بن أميّة النصري بكتابه إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام ويقول له: عندك أصحابي فأجرهم وقرّبهم ولاتتجبّر عليهم، وأرسل إلى المسلمين بما أنزله الله عليه: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ فما سمع النجاشي ذلك ضرب يده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثم قال: ماعدا

عيسى بن مريم مما قلت هذا العود، فتأخرت بطارقته حوله حين قال ذلك فقال لهم: وإن نخرتم، ثم أقبل على المسلمين فقال: اذهبوا فأنتم سيُّوم بأرضي ما أحب أني آذيت رجلا منكم بجبل منكم بجبل ذهب. ردوا على هذين هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، فنال بطارقتهم من هذا ما غمّهم وساءهم، وخرج عمرو وصاحبه من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءوا به، وأقام المسلمون عنده بخير دار عند خير جار. ثم أقبل عليهم وبسطهم ورفع منهم ولم يزل يسمع، وأسلم، وأجاب رسول الله ﷺ عن كتابه بأني قد أسلمت، وترددت رسله وكتبه إلى رسول الله ﷺ مع هداياه، وأنفذ ابنه إلى النبي عليه السلام فغرق في البحر قبل أن يصل إليه، وكان من أمر النجاشي ما هو من المعلوم من إسلامه.

والذي أردنا من هذا أن مثل عمرو بن العاص قد تباهي في سبِّ رسول الله ﷺ والتنفير عنه والصد عنه عند النجاشي.

فانظر هل أمكنه أن يذكر في ذلك حجة أو ما يشبه الحجة، أو غدرة، أو زلة، وقد كان رسول الله ﷺ هاجر وكان له مع قريش واليهود والنصارى تلك الوقائع والمشاهد وقد شهدها عمرو بلغه مالم يشهده، فانظر هل كان عنده في ذلك شيء ينفر به عن رسول الله ﷺ أو يحتج به على المسلمين وقد استفرغ. ومنام عمرو فوق يقظة هؤلاء السفلة من زنادقة زمانك كالحداد والوراق وابن الراونديّ والكندي والباطنية وطبقات القرامطة. وكم مثل عمرو من قريش سبيلهم سبيله في عداوة رسول الله ﷺ والمسلمين، وكم له مع النجاشي من المراجعات في أمر عمرو بن أمية الضمري ليمكنه منه ليقتله فما مكنه، ثم عاد بعد ذلك إلى النجاشي بمدة طويلة وسفرة بعد سفرة، فوعظه النجاشي ودعاه إلى الإسلام ورغبه في الهجرة، وقد كان أخوه هشام بن العاص أفضل منه وأجل قدرًا فأسلم وهاجر وجاهد في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته واستشهد رحمة الله عليه.

فانظر إلى تدبير قريش في مهاداة البطارقة ليكونوا معهم على المسلمين وليصرفوا النجاشي عن المسلمين، فإن هذا تدبير العقلاء والدهاة والمنكرين، ولا يمكن العاقل الكامل المتأني أن يفعل أكثر من هذا ليعرف عقول قريش وخصوم رسول الله ﷺ من العرب على غيرهم، ثم ما أغنى عنهم فيما راموه من الطعن على رسول الله ﷺ.

وانظر كيف لما ذكره المسلمون بأنا نعرف أمانته وصدقه وعفافه إلى غير ذلك هل تهيأ لعمرو أو لغيره من أعدائه أن يقدح فيه أو ينكره، ورسول الله ﷺ ابنهم وهم ولدوه وهم ربّوه ومعهم نشأ ومعهم أقام وسافر.

وباب آخر

[المعجزات والآيات يغني بعضها عن بعض]

أن معجزاته ﷺ والآيات التي نقضت العادات يغني بعضها عن بعض ويسد بعضها مسد بعض. فإن من استدل ببلاغة القرآن وفصاحته على نبوة النبيّ ﷺ عرف صدقه وإن لم يعلم ما في القرآن من الاخبار بالغيوب، ومن لم يستدل بالفصاحة واستدل بما فيه من التنبيه على ما في العقول يحصل عالمًا بنبوته وإن لم يستدل بالفصاحة ولا بالإخبار عن الغيوب، وليس كذلك النصوص على الأمور التي يعم فرضها ويشمل وجوبها، فإن بعضها لا ينوب عن بعض ولا يغني بعضها عن بعض، ولا بد من أن يحصل العلم بكل واحد منها ويكون مجيئ جميعها مجيئًا واحدًا. بيّن لك ذلك أن النص على القبة لا يغني عن النص عن شهر رمضان، والنص على الجمعة لا يغني عن النص على غسل الجنابة، وكذا في الخمر، والخنزير، والزنا، واللواط، والأمهات، والأخوات، والبنات، وجميع الفروض العامة الوجوب، فاعرف ذلك.

وإنما ذكرنا هذا لأن قومًا من الإمامية والرافضة ادَّعوا أن رسول الله ﷺ نصَّ على إمامة رجل بعينه، وأوجب على جميع الخلق من الذكور والإناث والعبيد والأحرار والمسافرين والمقيمين والمرضى والأصحاء طاعته واعتقاد ولايته وموالاته.

obeikandi.com